

روايات الهلال

الليل.. الرحمة

محمد رومي

REWAYATAL — HILAL
NO - 456 DECEMBER 1986

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

Amby



روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

نصير عن مؤسسة
دار الهلال

العدد ٤٥٦ - ديسمبر ١٩٨٦

ربيع الثاني - ١٤٠٧ هـ

NO . 456 DEC . 1986

● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية
مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد
اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر
دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم
عشرون دولار بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال
فى ج . م . ع نقدا أو بحوالاة بريدية غير حكومية وفى
الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال .
وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة
اعلاه عند الطلب .

اسعار البيع فى البلاد العربية للاعداد العادية من
سلسلة روايات الهلال فئة ٧٥ قرشا للقارئ فى مصر
سوريا ١٨٠٠ ق س . لبنان ١٨ ليرة . الاردن ٥٠٠ فلس .
الكويت ٤٠٠ فلس . العراق ١٦٠٠ فلس . السعودية ٧
ريالات . تونس ١٦٠٠ مليم . الخليج ١٢٠٠ فلس . الصومال
١٢٠ ملى . لاجوس ١٢٠ بنى . عدن ١٤٤ سنتا . لندن ١٥٠
سنتا . اثينا ٢٠٠ دراخمه . كندا ٥٠٠ سنت . الداريل ٦٠٠
سنت . استراليا ٦٠٠ سنت . السودان ٢٥٠ ق سودانى .
المغرب ١٥٠٠ فرنك . غزة والضفة الغربية ٧٥ سنتا . داكار
١٠٠٠ فرنك . اليمن الشمالية ١٥ ريالا . ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة

الادارة . دار الهلال ١٦ شارع محمد عر العرب - القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

سكرتير التحرير

محمود قاسم



روايات الله

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

الذیل الرحیم

تألیف

محمد رومیش



دار الفلاہ

النفثيد من الأفق الغربى

.. ثم توارى الجحيم ..
.. كانت تصبه الشمس ، فتصنع الحقل .. حقل الوسية الواسع ..
.. فرنا كبيرا ، يشوى مابه من ناس ..
ومن بعيد .. من حيث تلتقى السماء بحقل القطن .. أقبلت
نسمات .. تجفف العرق .. تعانق رءوس الشجيرات .. تموج
اللويزات المنفتحة بلونها الأبيض الشاهى ، فيبدو القطن بحرا .. كبيرا
صاخبا .. يغطى الزبد صفحة مائه ..
.. وابست « ست أبوها » وهى تتخفف من الخرق التى تلفها
فوق رأسها وحول رقبتها عازلة أشعة الشمس من أن تحبل وجهها
النفثاى البشوش ، قطعة فحم ..
.. وأطال إبراهيم تأمل ست أبوها ، واسقط فى قلبه ، ملاحظة
البنية .. ووقف بعينه على خديها المتوردين ..
- ست أبوها مش للفيظ يا أولاد .. رآها بكرت فى داره ..
كنستها وجزءا من الحارة .. ملأت البلاص من التربة ورجعت فى
بدها حزمة حب بحر .. أخضر .. معطر .. تقربه الى انفه .
- قوم يا إبراهيم الشمس علو الدنيا ..
- يا شيخه سيبنى شويه ..
- وحياة سيدى ذى النون م أسيبك ..
واعترضت ساق إبراهيم شجرتا قطن تشابكت فروعهما .. شق
طريقه وسط الأغصان المتشابكة .. أحس اللسع وتقط دم صغيرة .
قائبة .. متجمعة على ركبته .. مسح الدم بقطعة قطن دسها خلسة
فى عبه .. لتأخذ طريقها الى بوركشير . وسارعت ست أبوها بمد
يدها بمندبل اعتادت أن تلف به صابونها ام ريحة .. تنسم
إبراهيم المندبل عميقا ، ورده .. التقط الحنو من عيني ست أبوها
.. رفع قامته ..
عندى .. من الورد
بستان .. ورد
بيطرح .. ورد

وخادم .. الورد

يسقى الورد

ماء الورد

سبع سنين السنة

حارس جناب الورد

... قفز لون وردى باسم .. صبغ وجه ست ابوها بخجل اليف

.. ارتعشت أصابعها الماهرة ، وهى تنتزع القطن من لوزاته ..

وبصوت خفيض .

- مش قلت لك يا ابراهيم ..

- قلت ايه يا ست ابوها ..

- قلت لك متغنيش الموال ده ..

- ليه يات ..

- أحسن الناس .. بتعرف ..

- تعرف ايه ..

- م اعرفش ..

.. وانت ابراهيم المناسبة التى ينتظرها من الفجر الباكر .

- صحيح يا ست ابوها ..

- صحيح ايه ..

- الواد عواد .. راح لامك .. ليلة امبارح .. عشان يخطبك

منها ..

.. اتسمت ست ابوها .. بعينها الاثنتين اطبقت على وجهه

ابراهيم ، فى لقطة كبيرة .. وجه اسمر مستطيل .. جبهة مفرودة ،

عالية .. انف طويل .. شعيرات رفيعة صفراء ... لمعت تحت

شمس العسارى فوق شفته العليا .. ورائها شاربا مبروما .. اكبر

من شارب زيدان الخولى ..

- اتقبل لك الجد يا ابراهيم ..

- ايوه .. قولى الجد ..

-- هو .. قابل امي ليلة امبارح .. قالت له .. صحيح يا عواد

بانى .. انت عندك نص قدان ارض .. وعندك بقرتك فيها شوية

اللبن .. لكن مخبئش عليك .. العيال بسحبوا بعض .. وانت عارف

شئى مقطوعة من سجرة .. عاوزه اجوزها لواحد .. بيعجبها ..

وتعجب .. عشان لما اموت .. اموت مرتاحه .

- مقطوعة من سجرة ازاي يا ست ابوها .. دا كلام .. عيب ..

آنى رقيبى لهذا التراب الذى لدوسى عليه .. مغرغ م كنى ..
.. ارتعش جسده الفتاة .. كاد يغلبها الدمع .

.. م انى عارفه كده يا ابراهيم .

.. لم تقم الشتمة التى جاءت من الخلف .. من زيدان الصعدي،
ان تشوه بهجة الفرحة او تقلل من رغبة الصغيرين فى ان يلقي كل
منهما راسه على صدر الآخر .. فوق قبة الفرن ..
- يعنى ياد .. بامغوص .. مغيث غيرك انت والبت الصفرة
دى .. طول النهار ودوده .

.. غطى العرق البارد جلد الفتى .. ضرب قلبه بشدة .. داخل
صدره وهبط .. ضاق وجه الدنيا المعتد بلا نهاية .. الخسولى
زيدان .. ثور هائج .. لسانه اطول من الفرقة واوسخ من نمل
البلغة القديمة .. يشتم ويضرب بالشوم .. وبالكف .. وبالرجل
.. وله ضهر بحميه .. « ملعون ابو الوسية .. من طاطا .. لسلام
عليكو .. »

- انت باعم زيدان .. مش عايز الخطين يجمعوا .. ويسبقوا
الخطوط ..

- متردش على بالكب .. على « الحلال من دراعى » م تروح
سليم ..

.. صاد قبط الوسية صمت جنازى .. تغدشه خرفسة
الاصابع .. تلتف حول اللوزات والسيقان تتخطى فروع الشجيرات
المجموعة .. ورجال يلمون الفطن من الانفار الجامعين .. الاكياس
ترفع وتربط فى طريقها الى مخزن الوسية .. صوت زيدان ..
يتنقل وراء الانفار .. هانجا .. يشتم .. يهدد بالضرب وقطع
اليومية .. ويقسم بالطلاق من ذراعه اليمين بانه لن يسح للانفار
بالعودة الى دورهم الا بعد عطسة « الشمس » .

- اصل آنى عارفكم .. فلاحين .. م تجوشى الا بانكرباج ..

.. ثلثت ابراهيم حوله .. صف طويل من الانفار .. رجال البلد
ونسوانها وعباها كلهم يرتعدون من اسم الوسية .. وينساقون
زيدان .. يتحدثون عن طول زيدان .. وعرضه وكف زيدان « يوم
م ضرب احمد فقلبه على الارض » .. وعنى بن زيب خرق طيلة اذنه
لانه تجرا وممشاشي من قدماه يوم رى القطر .. »

.. تنفس ابراهيم كمدا .. حط على قلبه حمل ثقال كالرصاص
سبار فى دمه .. امتصته كل خلايا جسده الشاب .. تمزقت

أمامه الحيرة التي ركبته يوما .. لأنه رأى بعينه أباه يقبل بد حضرة
العمدة .. والعمدة مجموص على المصطبة .. الشمس تنزف سيور
الدم في الجهة الغربية .. الصمت الثقيل .. يحط على الانفار ..
الانفار يقسمون بينهم وبين أنفسهم أنهم لن يعملوا في غيط الوسية
بعد اليوم .. لكن كلامهم يعلم يقينا أنه لن يوفى بقسمه .
قجاة تصرخ فاطمة .. تلقى مايعبها من قطن مجموع ..
- مبروك .. مبروك .. يا ضنايا .. يا حبيبى ..
.. ينكسر الصمت الذي فرضه زيدان :
فمبروك مزلود فاطمة الصغير الذي تنيمه بجوار عود تيل كبير ..
جرجره ذئب جائع .. وانطلق الانفار .. ينهون يوما من حياتهم .
ويطاردون ذئبا بين أنيابه صغير منهم .

(٢)

.. الدق التواصل على الباب يصل الى الأذن ست أبوها .. دفوفا
تتقدمها هي إبراهيم الى بيت العدل .. الدق يرتفع وهي تسرع
الخطو مع العريس الى القاعة التي فرشوا فيها حصيرتها الجديدة
وفي ركن القاعة الصندوق الخشبي المزركش احمر واخضر واصفر
.. بجوار « البورية » .. تحت حلة الانفاق .. احست بالخجل ..
وابراهيم يرارب باب القاعة ويسلم الرجال والنساء والاطفال المهتاجة
شاش الفلاح الابيض تنفسه بقع الدم .. ونسوة يغنين .. « شرفتنا
يا بنتنا بازينة .. »

« قولوا لابوها ان كان جعان يتعشى .. » ترتفع القلة الجديدة ..
وقبل ان يصل الماء الى فمها تهب مستيقظة متضايقه ظمأنة .. وتسمع
الدق على باب دارهم .. وكان ابراهيم بالباب ..

- خير يا ابراهيم .. خير ..

- مش باين ياست أبوها ..

وبها رغبة شديدة ان تقص عليه الرؤيا .

- ياخي يا .. بيمك من زيدان .. ولا من بتوع الوسية كلهم ..

- مش من زيدان ياست أبوها .. الانجليز مع المساكر الهجانة
والفقر .. محاولين البلد نحالها .. ويلموا كل الرجاله .

- خشن .. أخيك في قاعة الفرن .

- يادى الله ياست أبوها .. استخبي في قاعة الفرن .. وبعدن

يجررونى .. وتبقى فضيحة في البلد ..

- ياخي يا يوم .. والا اثنين .. معلش ..

— مقيش فائدة ياست أبوها .. وآنى بصلى ألفجر .. سمعت
أنهم جابيينها من فوق .. م المنصورة بلد .. بلد .. عزبة .. عزبة
يلدوا الرجاله وشحنوهم ع المنصورة .. دول كمان بياخدوا الجمال
والخيل والحمر .. حتى الفراخ والدرة .. والشعر ..
— يادى الخراب باولاد .. ليه ده .. هيه المنصورة اتخربت ..
— منصوره ايه ياهبله .. انا سمعت أنهم بيشحنوا دا كله على
مصر .. وبعد كده محدش عارف .

— يادى الخيبة .. ومين اللي هيشغل فى أرض الوسية .
.. وشد عساكر الهجانة ابراهيم .. وانتشروا فى باقى غرن
الدار الواسعة بارشاد شيخ البلد .. للتفتيش وخرجوا وليس بيدهم
سواه .. وثار رئيس الفرقة أحمر الوجه .. يتكلم بلكنة الخواجات
.. تجار القطن .. متسائلين عن الرجالة .. والجمال .. والبقر ..
والخيل والحمر .. والحيوب .. ورد شيخ البلد بلسانه ويده
وجسمه .. ليس بالدار سوى امرأة عجوز وابنتها .. والبنت تعمل
باليومية .. فى أرض الوسية .. كل يوم برزقه .. لكن احمر
الوجه .. طلب أن تبرع العجوز لمنظمة الصليب الأحمر ..
.. لم تفهم ام ست أبوها .. سوى أنهم حملوا مع ابراهيم ..
عريس انتها .. أجرة ست أبوها جمعة يحالها .. وأربع فرخات
بياضة .. ربطه سوده .

.. فى العصر .. ارتفع كالعادة .. دخان الكوائن .. يحمل
رائحة الروث الجاف المحترق ورائحة الملوخية والبامية والرجلة
والحميض .. وتراءى للرجال المشحونين فى العربات اللورى .. ان
دخان الطبخ .. حريق مكتوم .. يتصاعد لاعلى .. وتحملهم العربات
٢ . كل لصير .. لا يدريه .

(٣)

.. فى غبط القطن .. أمام الخولى زيدان .. قرئم الانفار ..
بلدى يابلدى .. السلطة خدت ولدى .. بلدى .. يابلدى .. انا بدى
ارجع بلدى .
وينتهى جميع القطن .. وقطع الحطب .. وحرث الأرض .. ويدر
الحنطة .. ويدخل على قريتنا فصل شتاء جديد ..

(٤)

.. هذه السنة .. واجهت ست أبوها .. شتاء قريدا .. مع
حلول الليل .. وأندوام لله وحده .. يهل ابراهيم على كفه لبشة

القصبة .. وفى جيبه الفول السودانى ، وخرطة العجوة السيوى .
- سالخبر يامه امباركه .. ازيك .

وينحنى على ام ست ابوها .. يصافحها ويقبل يدها .. سمراء .
جافة .. رقيقة الجلد .. معروقة .. والى جوارها يتخذ مقعده ..
تمسح بكفها على رأسه .. تطبطب على كتفه :

- ازيك يا ابراهيم .. ازيك يا ولدى .. قسومى يابت ولمى
الطاجين ..

.. الصغير يستعرض فتوته فى كسر أعواد القصب .. وتستغرق
ست أبوها فى أشغال النار .. ويتوسطهم الطاجين .. وتمتد الاصابع
تستدفىء .. ويملا الدخان قاعة الفرن من الارض للسقف ..
وترتشف الافواه الصغيرة العصر البارد .. ومن جيب الجلالية
يخرج ابراهيم لفة العجوة السيوى .. وفيما يشبه السر يدسها فى
يد أمه .. ام ست ابوها .. خالتي امباركه ..

- وخدى كمان يامه .. حنة الهريسة .. دى .. اصل انى عارف
سنالك مش حمل القصب ..

.. وعلى ضوء اللبنة أم فتيلة .. المختنقة بين سحابات الدخان
.. تبدأ الام فى .. الحكى بعد تمنع منها وحلفان من ابراهيم ..
- يا ابراهيم .. يابنى .. حكايتنا .. عواجيزى .. قولوا انتوا
حكاية من حكايات الايام دى ..

.. ويعرف ابراهيم ان فى يده ورقة رابحة .

- وحياة سيدنا النبى يامه تحكى حكاية .

.. تحصل ست ابوها ضاحكة .. هى تعرف مشاهد السهرة
مشهودة .. مشهودة .. مشهودة .. بل ان تحقن
ما تتروعه .. على النحو الذى توقعته تماما .. يدهفها .. اكثر ..
الى الاغراض فى الضحك .. وتبدأ الام من حكاية ست الحسن والجمال
مع ابن السامان والشاطر حسن .. والغفلة غيبية التى خطفها الفول
وعاشت جارية فى قصر معزول هال ..
.. وتبدأ الام .. دائما ..

- صلتوا .. بنا .. على سيدنا النبى ..

وتلتقى عيون .. ابراهيم وست ابوها .. وتفرج الشفاه ..
ويتأخر الجواب عن الام .. تتفاضب وتقسم بحياة سيدى ذى
النون .. انها لن تحكى هذه الليلة .. ويسرع الصغيران .
- اللهم صلى على سيدنا النبى

وتعاود الام .

— كمان زيدوا .. النبى .. صله .. وحياة سيدى ذى النون ان
م زدوتوا .. النبى صله .. مائى فتحه حنكى .. اصل جيل الایام
دى كده ..

وتصمت الام قليلا .. ثم تبدا بتؤده واحترام ..
— كان .. ياما كان .. مايحلى الكلام الا بذكر النبى عليه السلام
.. كان .. فيه ..

.. ويحدث كثيرا ان يغلب الام .. النعاس .. فتغمض عينيها
نصف اغماض .. وينخفض صوتها مع قليل من البحة ..
— كمان زيدو النبى صله .. كان فيه .. يا اولاد .. كان النوم
سلطان ..

.. وتصحو الام على صوت قهقهة نشوانه ..
— الله يجازيكو .. يا اولاد ويجازى شيطانكم .. سمعنا ياواد
ابراهيم موال .. بس يكون مدح فى سيدك النبى .. مش من مواويل
الايام دى ..

.. وكله خجل حقبقى .. يتمنع ابراهيم .. وتلح ست ابوها هذه
المره .. ريتنحج ابراهيم .. ويجرع كوز ميه .. ويغمض عينيها
قليلا ..

عندى من الورد

بستان ورد .

لكن فى هذه السنة .. واجهت ست ابوها .. شتاء فريدا ..
يدخل الليل .. وهى من المغرب ممددة الى جانب خالتي امباركه ..
تتقلب على الجنب اليمين سرة .. وعلى الجنب الشمال مرة ..
وتهب فزعة من حلم القماها فى بئر عميقة .. وتعود تتقلب على الجنبين
وتحك تحت اطها .. وتسمع صوت الشيخ حلموشى يؤذن الفجر
فلا تسمعه .. وتهز امها .

— اخناامته يامه ..

— ياست ابوها نامى .. لسه كثير عن الفجر ..
وتنام ست ابوها .. ويتعارك ابراهيم مع زيدان الخولى ..
وينبتق الدم من جبهة ابراهيم وتأخذه على صدرها تحفف الدم
وتربط جبهته بالمنديل ابو ريحة .. وتفزع وتقنعه ان يبقى المندبل
حتى لا يصفى العبرج دمه .. ويمض فار كبير الاصبع الوسطى من
يدى اليسرى وسنيقظ .. وتتقلب على الجنب الثانى .. وتعود

مشاهد الحلم الكبير .. مرة تركب هودجا ويتهادى بها الجمل حول
البلد .. رمرة النسوة والفتيات يسبقنها وهي تخطو الى جوار
ابراهيم حول البلد في طريقهما الى بيت العدل .. القاعة .. الحصيرة
الجديدة المنقوشة مرة .. وساده مرة .. وحلة الاتفاق داخلها ذكر
البط فوق البوريه .. وابراهيم يخلع جلابيته الدبلان البيضة ..
دكة اللباس الحمراء المجدولة من خيوط الصوف تتدلى بين فخلديه .
مرة تجلس القرفصاء على الحصيرة بجوار المخدة .. ومرات هاربة
منه فى ركن الداعة .. ودائما يوارب ابراهيم الباب ويدفع بالشاش
الايض المنقط بالدم الى الناس المنتظرة على الباب .. وتصحو قبل
ان يبلغ ماء القلة شفتيها .. وتتقلب على الجنب الثانى .. تذكر
النسوان اللائى حدثنها عن ليلة الدخلة ..

- زى قرصة الدبور ..

- يا بت يا ست ابوها .. اخذ الوش زى قرصة الدبور .

- يا شيخة حرام عليكى .. ه .. تخوفى البت .. والنسبى يا ست
ابوها .. دى .. زى قرصة البرغوث ..

- يا بت ماتخافيش .. لا برغوث ولا دبور .. ولا ه .. بقى
حاسه بحاجة .. ومن داق غسل الخلايا يصبر لقرص النحل ..

- اقول لكم .. ان كانت ست ابوها بتحب ابراهيم ببقى زى
قرصة البرغوث .. وان كانت بتكرهه . ببقى زى قرصة الدبور ..

- ان كان كده .. ست ابوها مش .. ه .. تحس بحاجة ..
- يادى الكسوف .. دا انتو نسوان .. بجحة صحيح وحياة

سيدى ذى النون ..

- آل يعنى آل .. يختى اللى يخاف من العرسة ما بربيش
فراخ ..

.. ويفضحك ابراهيم .. وتغنى النسوة

شرفتينا مابتننا يازينه ..

.. وحدث ان كانت تزف الى ابراهيم .. وهتفت لنفسها وهي
نائمة .. يا بت ده حلم .. يا ست ابوها .. انت بتحلمى .. وتصحو

فارغة تماما .. شئ قاس يمسك بصدرها من الداخل .. لا يسع
لها حتى نان تحرن او تبكى .. تصحو مخنوقة .. تنهج كانها فادمة

من مشوار طويل .. تود لو تبكى .. لو تطلق دموعها تفرق الدنيا
بحالها ..

- امه .. لسه اد ايه عن الفجر .

- خلاص يابنتى .. الشيخ حلموشى ه .. يسبح كمان
شويه ..
- يمكن خدته نومة .
- استغفر الله العظيم .. يا بنتى دا .. الملايكة بتصحيه منسان
يلدن الفجر ..
- الليله دى مالهائش آخر .
- استغفر الله العظيم .. يابنتى مادايم الا وجهه ..
- لكن يامه .. هو الواحدة تحلم انها بتحلم ..
- اللهم أخزبك يا شيطان .. ه .. افتى يابنتى فى اللى ماليش
فيه .. صباح رباح نسال الشيخ حلموشى ..
- اووه ..
- مانفخيشى ياست ابوها .. رزقك ع اللى خلقك ..



... بعيدا عن سوق الثلاثاء فى المنصورة .. وعن سوق الخميس
فى السنبلاوين ..
حتى عن سوق الاربعاء فى طنطا .. آخر مايصل اليه النابهون
والرحالة الكمار من رجال قرية تليانة ..
.. بعيدا عن ارض مصر .. كانت نجمتان تبهتان ببطء فى الجهة
الشرقية .. وتباشير ضوء كاب - تنبعث من بعيد .. وانطلق دوى
صفارة كتيب .. افزع الرجال الثيام او المهدودة .. تحسس كل منهم
قاسه ومقطفه .. انتزعوا انفسهم من رقدة ابدية . طوابير يتحلق
كل خمسين حول ريس - يوزع عليهم زاد يوم .. وتفرقع السياط
فى الهواء .. وينطلق الرجال الى الجبل .. جبل عال ، اعلى من
النخلة مرة .. مرتين .. قل ثلاثة .. تضرب الفئوس بطن الجبل ..
الاكتاف العريانة تحمل المقاطف تفرغها بعيدا .. المقاطف الصغيرة
تصنع تلالا فوق الجبل وتخلى ضربات الفئوس سكة مشقوقة فى بطن
المستحبل ..

.. فى المقدمة .. وفى اعلى الجبل .. وقف وجه احمر آخر ..
كالذى خطف ابراهيم من فوق قبة الفرن ، يرسم ببال رائق عرض
السكة المشقوقة .. ويتقدم « ريسه » كبار .. يفسرون ويشرحون
الى « ريسه » اصغر .. كلمات تنتقل من لسان الى لسان حتى
تصل الى الفعلة فئوسا تضرب .. ومقاطف تحمل .. وتلالا صفرة
تنشا .. وتحبو .. وتكبر على جانب السكة المشقوقة .. الرجال

الفعلة .. السفيلة .. موجات زاخرة .. كالعاصفة فى بحر بلا نهاية او ان آخره من الجهة الاخرى التى وقف عندها المهندس الانجليزى يرسم عرش السكة المطلوبة لتمتد فوقها خشبات ترمى عليها قضبان حديدية .. يقيسها انجليزى آخر .. ويشير لمن يربطون السامع القلاووظ الكبيرة .. وتمتد سكة حديدية تربط جنوب الشام بشماله .. وينقل الانجليز جيشهم مارا وسط جبل لا تبلغ اعينهم مداه .

الذى يشق الجبل .. لا يعرف ماذا يدور .. فالفأس ترفع وتهوى والمقطف يلتقى فارغا ويحمل طائفا .. ورافع الفأس وحامل المقطف وربما ريسهم الصغير نفسه .. لا يرون اكثر مما تحت اقدامهم .. الجبل ممتد .. فيما يراه .. بلا نهاية .. السوط فى يد الرئيس يبدو اقل من الجبل .. وهو قد قطع كل ما بينه وبين الدنيا من صلات ، يد الفأس .. وحمل المقطف .. هما ضمان الحياة فى هذه البقعة القريبة من الدنيا الواسعة التى لا امان لها .. يوقظونه فى الفجر .. لا يقضى حاجته .. لا يفرغ امعائه .. كوز ماء يستلمه ربا ليوم طوله الف عام .. كبشة عيش زادا ليوم ليس له آخر . حتى السوط الذى يشق جسده فدا لازمة من لوازم العيشة .. شئ واحد يرهيه رافع الفأس وحامل المقطف .. ان يضعف .. ان يهن .. ان يرقع الفأس فلا تكسر الجبل القاسى ان تنخ كتفه وتثوء فلا تحمل المقطف ويصنع التلال التى تعلو وتفصل بين عالمين .. هنا حقيقة واحدة .. يعرفها يقينا .. يعرفها بجسده .. بعروقه .. بالنبض فوق صدقيه تحت الحمامات الموشومة .. حقيقة يعرفها بجسده ويتكرها بعقله .. هو لا يصدقها وان كان يعيشها .. انه يعرف نكبانة كله .. مصيره .. اذا تخلخل فلم تشق الفأس ولهم يحمل المقطف .. سيحملونه .. سيحمله هؤلاء الانفار الذين يحادثهم وشكو لهم .. سيحملونه ويقذفون به حيا وراء التلال التى تصنعها المقاطف فوق الجبل . ليموت مفزوعا .. على مهل .. ببطء .. بانتقام .. ومن العالم الثانى .. عالم ما وراء التلال .. ينبعث منه الفحيح .. وتصعد الاهات والانبين .. واحيانا صرخات مكتومة واستغاثات ضائعة .. وهمهمات خافتة ونداء للام تمتصه الريح الباردة .. واشارة اللفظة الى شربة ماء .. وينغاب نصف الحى على ميت هو الآخر وجهه مفزوع القسمات عيناه تحمقان فى فراغ موحش .. فمه مفتوح .. الشفاه بيضاء

مشقوفة .. وتصفر الريح ويسيل المطر .. ويصنع الثلج طبقة
هشة .. تنلوي تحنها الأجساد .. وتكسو ما وراء التلال ، رائحة
حياة تموت وموت يتنفس .. أجساد تنقلب على جنث .. وفوقهم
يندحرج قادم جديد هذا شق الجبل .. وثان أحرفه العطش طفع
جردل عرق واستنفذ صنوف الحكمة فى استخدام لتر الماء الذى
استلمه فى الفجر وانتهى لتر الماء ولم يكف الجسد الحى عن نشع
العرق .. وسقط ولم يبيل شفته .. واستقبله عالم ما وراء التلال
وهمس حاملا المقاطف لحملة الفئوس .

- وسمعت به أحمد .. يقول .. شفته ميه .. حد يسيل
شفتى ..

- وعملت أبه باناشد ..

- الكرباج شق كتفى بنص ضميرى .. وخذت المقطف ونزلت ..

وبعود الرجال الذليل يحملون المقاطف بروءاهم القتالة .

- بعينك يا بدرأوى .. شفت الميتين مع الحيين ..

- أنت مش مصدق .. وحياة دى الليلة ومساها .. وحياة

من جمعنا من غير ميعاد ياشيخ صعيدى على بحرأوى .. شفت

واحد ميت مطبق بصوابه على ذراع واحد حى .. وده بيحك فى

صوابع الميت .. م قادر ..

- باتاس دا حرام .. بعملو جبانة للميتين .. وجبانة للحيين ..

والأجساد الساخنة وسط الصقيع والهواء البارد الذى ينشف

الطوبة - لا تكف عن طفع العرق .. النشفاه تجف .. الحسوق

تجف .. كل خلايا الجسد تعتمر ، ولا تكف عن طفع العرق ..

.. الشمس تتسلط عامدة متعمدة .. لبرد ينفلد كالمسامير

المحمية فى النار .. ولا تكف الأجساد عن طفع العرق ..

- لكن ياواد ياعواد .. احنا فين ..

- وحياة غرشنا ياابراهيم .. أنا نايه ..

- من فين جابوا الناس دى كلها ..

- م البلاد ياابراهيم .. شوف .. من بلدنا لوحدها طلوعوا كسام

راجل ..

- لكن يا عواد .. فين رجالة بلدنا .. دول شحنوا من بلدنا

لوحدها .. اكثر من عشر عربيات ..

- سألت الرئيس صميذة .. قال .. أن رجالة البلد الواحدة ..

يوزعوهم على فرق كثيرة .. دا غير اللى بيوموهم ورا التل ..

- بتعرف تحدث الرئيس صميذة ياعواد .. أنت ياواد .. عمرك

شاطر .. يماكت بتروح سوق السبلاوين تشتري عجوه ويستفندي
وقول سوداني ..

- دا .. انت اللي م لفتش بابراهيم .. دا بنى آدم .. زبي وزبك
تمام .. يطلع علبة الدخان ويلف السجاير .. ومرة عزم على بواحدة
.. وياما كلمته .. ويقول يا عواد .. يا بحرأوى يا خرع .. ومرة
قال لي .. احنا ياواد يا بحرأوى اكثر من ألف ريس .. جول الفين
كل واحد تحت ايده جول خمسين فواعلى .. وسواي فيهم هنود
والهنود دول فيهم سيك ومسلماني .. ومرة شورلي على واحد كان
ماشى زى جزع النخلة .. وقال لي انت شايف ياد يا بحرأوى يا خرع
اللى ماشى ده .. قلت له ابوه يا عم الريس صعيده .. قال وحياة
سيدك عبد الرحيم الجنأوى .. ده استرالى ..
- ياواد يا عواد .. الدنيا واسعه ..

على ان ابراهيم لم يهمس الى عواد عن الشيء الثقيل الذى يربض
فى اعماقه .. لقد شب على انه ليس من الحكمة ان يقص الحلم الا
اذا كان يشتر بخير .. فالحلم يتحقق بتفصيله فى كلمات محددة
تخرجها الشفاة ولم يسمع امه تنطق كلمة « المرساة » التى اكلت
الكتاكت الصغيرة .. انها تسميها « المخسوفة » ان المسافة
مرفوعة بين الكلمة التى وضعت للدلالة على الشر وبين الشر
ذاته ..

.. فى القاء البعيد لنفس ابراهيم .. يكمن خوف قاتل ..
خوف يحفل ابراهيم ان يتحدث عنه او يشير اليه .. فالحلم باشياء
سيئة يتحقق بحكاية الحلم .. صورة الجبانة الغريبة التى تقع على
مراى بصر من ابراهيم .. يزيحها عن مخيلته .. فتعود اليها اكثر
وضوحا .. الاموات تتقلب على الاحياء .. ابراهيم يضرب الفأس
بقوة يبعد عن فكره .. موت صلحى صاحبه فى الحارة وفى شبل
السباح وجمع القطن وتنقية الفلت من غيطان القمح والسهرات فى
مولد سيدى ذى النون .. وان يموت الصديق الاعمار بيد الله ، بيده
كل شيء .. اما ان يلتقى صلحى حيا يستقبل ربا كريما فى هذه
الجبانة .. فاراهيم بكاد يزيح بيده الفكرة عن دماغه والسواد
سليمان بن عم جرجس النحال وطاقيته الدبلان البيضة .. فينك
يا سليمان ..

فات شتاء منذ شحنتنا الغرباء فى عربات لا تستجيب لتضرعات
راكبيها وتعود الى تراب تلبانه .. اما ان يقدفوا ابراهيم حيا وراء

التل .. ففكرة لا يكاد يصدقها .. فكرة يقاومها بالفأس تضرب
 بطن الجبل .. وهو كله شغل بابو خليل .. في غيطان الوسية ..
 في جبل الانجليز .. في أرض العمدة الحرامي ابن سنين .. كله
 شغل .. كل شغل .. وبني آدم .. غلا .. أو نزل .. نصيبه كلاء
 لقمة عيش .. هدمة تستر جسده .. والآخر حنتين قطن على فمه
 و وراء ظهره .. لكن الناس الانجليز .. الميه بالقطاره .. عيش وأقله
 تكفى لكن الشرب .. والنوم .. حرام .. حرام الشغل من النجمة
 انص الليل .. ياما لعنت الشيخ حلموش بابو خليل وصوته الخشن
 المبحوح يوظفك لصلاة الفجر .. اخترعوا ولاد الكلاب .. الصفارة
 الملعونة .. والرئيس صميده .. رجل لا فى قلبه تقوى أو إيمان ..
 حرام عليك باريص صميده .. فسيل الوش .. قلنا .. نستغنى ..
 لكن يارجل الميه المحبوسة طول الليل فى البطن .. مغيث دقيقتين
 نفكها .. على الحرام الخولى زيدان نفسه .. الله يعافيه بالعافية ..
 ماكان يقدر يحوشنى مفكش الميه .. لكن معلوش .. بابو خليل
 فين كلام الشيخ حلموش فى خطب الجمعة .. أنها الناس ما يصيبكم
 الا المكتوب لكم فى اللوح المحفوظ .. واللى يتبلى ببليه .. تكفر عن
 ذنوبه .. والله وحشتنى يا شيخ حلموش .. سامحنى .. ياما نعست
 وانت ماسك الورق فى ايدك وبخطب خطبة الجمعة .. وده ذنب
 كبير بابو خليل .. والواحد عليه ذنوب .. متعشش وادى احنا
 بنكفر عنها ..

مع اخفاء الخطوط الحمراء بعد قروب الشمس .. أحس ابراهيم
 بفراغ داخل ركبتيه لم يلق له بالا .. واصل طعن الجبل بفأسه ..
 يرفعها أعلى من رأسه بحديدتها التى فى حجم دماغ طفل فوق المشط
 الذى يفوس .. ويملا المقطف ليحمله من يصعد به الى أعلى التل
 .. ويرفعها ليملا المقطف الشسانى .. والثالث .. مقساطف
 بعدد شعر الرأس .. ويصعد الالم الى صينية ظهره .. والمقطف
 يلقى فارغا لم فع مليئا .. والفأس ترتفع وتنزل .. وينشر الالم
 فى ذراعى الفتى .. والفأس ترتفع وتنزل ومقاطف ترمى فارغة
 وتشال طافحة .. والظلام يسقط ببطء وتقاد الفوائيس والكلوبات
 وتترافص خيالات الرجال والفتوس والمقاطف فى عيني ابراهيم ..
 وتدق عروق دماغه تحت الحمامتين الواقفتين أعلى صدقيه .. ويرفم
 الفأس وتبدو رأسها الحديدية اكبر من قبة سيدى ذى النون ..
 - واد ياهمام ..

- ابره براهيم ..
 - انا حاسر اتنى تمبان شويه ..
 - اجمد بابو خليل ..
 - امته .. ه .. يخلص النهارده ياواد ياهمام ..
 - لسه بدري بابو خليل ..
 - ياواد ياهمام انا دايع ..
 - أهوذ بالله .. اصبر شويه ..
 - مش قادر اشيل الفاس ..
 - اقول لك على شوره ..

انت شايف شجرتين الينسون .. الى هناك دول ..
 وبين شجرتي الينسون الكبيرتين .. القى ابراهيم بجسده .. لم
 ينمس .. اسلم جسده لاه الارض .. يتنفس فوقها كما يتنفس
 ورق الينسون .. وكما تتنفس دودة القرضة .. والسحلية التي
 تحمل مفتاح الجنة وترقد تحت جنبه .. وكما تتنفس حفات التراب
 الرطبة التي تظللها غصون الينسون ..
 الخولى زيدان يشد على يده .. والله حمد الله ع السلامة ياواد
 يابراهيم ..

وامه .. خالتي أم ابراهيم .. تحتضنه وتكي غير مصدقة ..
 مش مصدقة براهيم باضنايا باسيدي ذى النون له دستتين شمع ..
 وابلة لاهل الله .. يقرأ فيها الشيخ حلموش عشان رجعتك ليه
 بالسلامة ..

ست ابرها فادمة .. من بعيد .. تغطي وجهها .. و .. صوت
 غريب عن مجتمع شجرتي الينسون ودودة القرضة .. والسحلية
 وزيدان .. وخالتي أم ابراهيم .. وست ابوها صوت ناتي من اغوار
 مجهولة .. وتنقلب ابراهيم ويزيح عن نفسه اكوام التعب والنعاس
 وتنقلب على جنبه الثاني والصوت يتضح اكثر .. فاكثر .. وبغزع
 ابراهيم .. وفتح ابراهيم عينيه .. وورقتا على حافري حصان ..
 وشال بصره الى اعلى .. وتحلت امامه الرؤيا المخيفة .. انجليزي
 على ظهر حواده .. نزل الراكب .. رطن .. شد كف ابراهيم اليمنى
 وقرأ رقما مشتتا على قطعة حديد تلتف حول معصمه كساعة اليد ..
 انطلق الحصان بالراكب .. حمل ابراهيم فاسه وجرجر هواحه
 ومخاوفه التي مزقته الى فرقة الرئيس صسميدة .. وكله ينتفض
 بالفرح .. حكى لعود ..

- .. أنا خائف يا عواد ..
 - .. الخوف من الله ..
 - هـ .. بموتوني يا عواد ..
 - باشيخ فال الله ولا فالك ..
 - نفسي اشوف امي .. يا عواد ..
 نفسي يا عواد .. اشوف بلدنا قبل مموت .. سجرة الجميز
 الكبيرة .. ابو قردان .. وابويه ..
 أنا كنت بخاف من ترب بلدنا .. لكن الوقتي .. ياريت ادفن
 فيها ..
 - ياواد يابراهيم سلامتكم م الموت .. وحياة دي الليلة يابراهيم
 انت عندي اعز من نفسي ..
 - أنا عارف يا عواد .. وعاوز اقول لك حاجة ..
 - أنا تحت أمرك .. قول ..
 - ست أبوها يا عواد ..
 - وحياة سيدي ذى النون .. هترجع لها سالم ..
 - آني عارف يا عواد .. قلبي حاسس .. أجوزها .. ست أبوها
 .. يا عواد لما ترجع البلد ..
 عواد يرتج جسده كالحموم .. ويضع كفه على قم ابراهيم بمنم
 شير الحلم ان يتجسد في كلمة وكلمة عرسة تفتال صفار الفراخ
 كالعرسة ذاتها ..
 - أجوزها يا عواد .. دي طيبة .. قلبها أبيض زي اللبن الحليب
 .. باما كان في نفسي .. اتى مش كنت بحبها زي م واحد بجور
 واحده .. كت بعزها زي امي .. اخني .. واحد صاحبي .. دي -
 غلانة .. باما شافت كان في نفسي أريحها شوية من غيطان الوسية
 غلباته .. ملهاشي حد غير امها ..
 - كفاية يا ابراهيم ..
 - أنا بقول لك أجوزها .. عشان عارف انك بتحبها ..
 - ..
 - ... نهرب قين يا عواد .. احنا قين .. ويمسكونا بدل م يبقى
 واحد يبقى اثنين ..
 بات الفرخ في قفص الثعبان ..
 قن الفجر .. لم تسق فرقة الرئيس صميذة للعمل ..
 .. الشمس العجوز كسا شروقها سحابات كثيفة سوداء ..

فرقة الرئيس صميذة تقف حلقة .. فى وسطها انجليزى يسدلته
 الصوفية الصفراء داخل معطف ثقيل تصطف ازواره من تحت الرقبة
 الى ما بين الساقين .. تزين اكتافه وصدره نياشين مجهولة الهوية ..
 قدماه غاطستان فى شرايين من الصوف .. الحذاء لامع كالبصقة ..
 اللحية حلقة ناعمة .. الشارب مثلث قاعدته شفة رقيقة .. يعسر
 بلسانه عليها يسمح اثار آخر كوب من زجاجة ويسكى كبيرة ..
 ينهى الشارب تحت انف طويل كالبلحة الوارمة فى لكنه متكسرة ..
 كالخواجات تجار القطن .. اعلن ان ابراهيم سالم .. من فرقة
 الرئيس صميذه والذى يحمل رقم ١٩١٧ .. نفر كسلان .. ولبت
 انه هرب من الخدمة .. ونحن فى حالة حرب كبيرة .. وقيادة المعسكر
 قررت جلده مائة جلدة .. عقوبة له .. وتحذيرا لغيره .. والقيادة
 هذه المرة قد استعملت الرافة ..

.. وسحبوا فتانا ابراهيم سالم الذى يحمل رقما لا يعرفه ..
 ادخلوا راسه فى فتحة خشبية ضاقت باستدارة الرقبة .. شدوا
 يديه الى الامام .. قوسوا ظهره .. ووقعت الطاقية الصوف الحمراء
 المشغولة بالفرزة ومرت هبة هواء باردة هزتها .. ولم ترفعها يد ..
 وظهرت البقعة السوداء على جنبه الابر .. وحمة ام ابراهيم فى
 حفنة غسل اسود .. ومرت هبة هواء ثانية باردة .. فحركت شعر
 « الاصة العايق .. » ورفع صميذة يمينه بالسوط مزحوما بالزيت
 ثقيل .. وصرخ ابراهيم .. وصرخ .. وارتفعت الانات .. لم سمعها
 سيدى ذى النون صاحب الشمع الذى لا ينطفىء .. وارتفعت الانات
 .. والاوراق المقدسة فى يد الشيخ حلموش على منبر الجمعة ..
 وخفتت الانات .. تدارت رأس ابراهيم .. العدم مستمر .. ستين ..
 واحد وستين .. اثنين وستين .. وانتفض الرجال الواجمون ..
 الساكتون .. وحمله بعضهم حملة عواد .. واستقبل ابراهيم ماوراء
 النل ..

(٦)

.. خمسون سنة ..
 .. تنقص سنة .. ستين .. تنقص عشر سنوات ..
 .. قل تنقص خمسين سنة .. نحن لا نعد بالارقام ..
 .. نحن فى حوارى تلبانه .. فريتنا .. غيطانها .. وسككها
 واشجار الجميز .. وابو فردان الوفى وحميزها التى تدب بأقدامها
 متمهلة متباطئة .. تحرك الرقبة وتهتز الاذان الطويلتان المتدليتان

اهتزازة وفورة .. تصنع مع دبيب الحوافر المتهملة قطعة بالية
شجيرة .. تقول ان المصريين لم يتموا بعد رغم تعاقب فصول الفيضان
.. بناء الهرم الاكبر .

(٧)

الشمس على مهل تصنع يوما جديدا . نورها يكاد يمس اعالى
شجر الجازواين والكافور .. سطح التربة تتصاعد منه بوخة كالتي
تصاعد من حلة بامية تغلى رفع غطاؤها « خالتي الست » تنشق
طريقها .. تتبين بوضوح آثار قدميها فوق التراب الذي ختمه
ما أمتصه من ندى .. قشرة التراب الرطبة تملأ بحنو الشقوق
المفتوحة في كعبي خالتي الست . الشمس تملو من وراء غيظ اللدة
.. قطرة ندى تلمع خضراء حمراء صفراء على ورقة حلفاء مديبة ..
أوراق البشنين المفرودة كالرغيف تنتشر على سطح التربة ..
وتقفز فوقها ضفدعة .. أمواد النيل الخضراء تمتد على الحافة ..
شجرة السنط العجوز تميل بجذعها على قلب التربة وتصل الى
قرب البر الثاني وتتخذها الفلاحون الخشاء قنطرة .. جنيئة العمدة
التديبة تقلد خالتي الست برائحة الجوافة .. قوبة نفاذة ..
نور الشمس يسقط على ورقة الجوافة الخضراء الداكنة وتبرز حبات
الجوافة .. بقعا صفراء .. اللعاب يوحف الى فم خالتي الست
وتفرق لسانها .

- سبحان الدائم .. عادت جنيئة الاصلاح
- اشوح واحدة ياعم جبرين ..
- بس يابت ه يعطى من ملك غيره ..
- ملكه والا ملك غيره .. قنعت والحمد لله ..
- بتحدثي مين ياست ابوها ..
- انت فين داهية ياواد ياامواد .. دابعا ورايا .. ورايا ..
- انا فت ع الدار .. ندهت .. محدش رد ..
- مين ه يرد .. يا حيرة .. انا صاحبة من اذان الفجر ..
- غسلت وشي ويلبت لقمة .. وقلت يابت ادحدحى .. اسبفيهم
ع الغيظ ..

- تركبي الحمار ياست ابوها .
- معدشى يبرى .. السكه خلصت .. الغيظ قرب ..
- والله انا ياست انا بيعز على بهدلتك فى الغيطان ..
- مش عيب ياامواد .. ايام .. مين الى مرتاح .. الله يرحم

الجميع ..
.. اختار عواد لست أبوها خط قلب للقناية .. قطنه خفيف ..
تقده حرف القناية وتميل الشجرة .. وتنتزع القطن من السوزات
وتثنى الشجرة .. وتضغط بيدها على حرف القناية وتنتقل
للشجرة الثانية .. اولاد عواد .. ونسوان اولاده وأولاد اولاده
بعدد خطوط الغيط من الحد للحد .. وقف خفير الاصلاح الزراعى
يسأل ..

- عاوز كام كيس ياعم عواد .. ؟
- هات كيسين يا ابنى ..
- قولى موال ياخاله الست ..
عم عواد لحفيده ..
- اجمع ياواد وانت ساكت ..
ابن عم عواد البكرى ..
- ياراجل .. سيب العيال يتفكو .. احنا فى مدرسة ..
- ياتك الغم .. لسانك طويل زى ابنتك ..
- قولى موال ياخاله الست .. وانا هـ اجمع لك الخط بتاعك ..
عم عواد قذف حفيده بطويه . تلقاها الصغير باسماء عابثا .. ونظر
الى ابيه برى وقع ماحدث على قسماث وجهه ..
ابن عم عواد البكرى ..
- ياراجل تقطنا بسكاتك .. سيب العيال يجمعوا .. والا اقول
ك . قوم روح . فوت على النقطة دول كانوا عاوزينك ..
- اخرس لسانك ياوله .. ذلك خيبه .. انت وابنسك فى يوم
احد ..

ولكن حفيدا آخر مال على الصغير طالب الموال ..
- ياخابب الموال مايجيش كده .. سيبه ييجى لوحده دى خالتك
ست متعرفشى تشتغل الام تقول مواويل ..
- مين اكبر ياوله .. جدنا والا خالتك الست ..
- انا سمعته مرة يقول انهم من سن بعض ..
صحيح كان دابر عليها قبل مايجوز جدتنا ..
- الله يرحمها .. قبل ماتوت سمعتها بتقول لابويه ابوك ياابراهيم
لوش امان .. ياما جبرى ورا ست أبوها .. كان فى نفسه
توزها ..
عم عواد لم القطن من حزم الجمعية والقها فى الكيسى .. ادار

يده في الكيس يسوى القطن ويكبسه .. واسند ظهره الى الكيس
وفى ظله اخراج عليه الدخان .. وانتزع ورقة بغرة من الدتر اخذ
من العلبة مسكة اصبعين دخان فرط .. انا الورقة على السبابتين
.. وبالا بهامين ، برم الورقة الرقيقة .. وبطرف لسانه بلل حرفها
وبرمها .. فاستوت فى يده سيجارة تعلقت بين شفتيه .. سحب
من جيبه كيس قماش صغير .. اخراج منه قطعة حديد مستديرة
مع قطعة سن مشطوفة قرب يده من فمه وضرب الحديد على
الصخرة فتطايرت بضغ شرارات وشد نغسا عميقا فاشتعلت
السيجارة .. وزم شفتيه تاركا ثقباً ضيقاً .. طرد منه الدخان
فانبثق خط افقى .. ومن طاقتى انفه نفث عمودين من الدخان
تقاطعا مع الدخان المنطلق من بين شفتيه .. وسرح ببصره فمسح
الاولاد ونسوانهم واحفاده .. وبسط ساقيه .. ووقف عند ست
ابوها .. رنض عرق داخل صدره ..

— فين يا اولاد .. عمر .. عمر طويل .. من ايام م رجعت من
السلطة .. رحت لامها .. كانه امبارح .. دارهم اللي مغيرها شي
الزمان .. ياما سمعت من المرحوم ابويه .. الفاتحه لروحه ..
وروح امواتنا .. واموات المسلمين .. ياما سمعت منه ان الدار دى
كان فيها بدل الراجل خمسة .. ابوست ابوها .. واخوانه ..
سبحان الاديم .. فضلت الوليه وبنتها .. مش هانسي ابدا ..
يوم م قلت للوليه على اللي حصل للمرحوم ابراهيم الله يرحمه ..
الوليه حزنه عليه .. يمكن اكثر من امه .. الا ست ابوها ..
م فيش وحده بالوصفة دى .. تقع من طولها ساعة م تعرف ان
ابراهيم مات .. يعنى يا ولداه لو عرفت اللي حصل له .. الله
اعلم .. كان تملت ابيه فى روحها .. قاست كثير .. م صدقش ان
ابراهيم قال ان ياعواد اجوز ست ابوها .. الله يرحمك يا ابراهيم
.. فين العود السرح الحلو .. ياما التراب بياكل ..
— اجوز ست ابوها ياعواد ..

كانت بتحبه .. وشهادته لله .. انا م كت بعقد فى حكاية الحب
دى .. وللوقت كمان .. لكن ست ابوها .. فيه واحد تعمل كده
.. تيب لو مش بتحبني .. كان اجوزت حد غيري .. امها قالت
لها ..

— ياست ابوها .. يابنتي .. الاعمار بيد الله .. وربنا حلال الجواز
عواد مش غريب ..

- يامه راسى وألف سيف .. أنا خلاصى هرفت بختى ..
- يابنتى انت لسه صغيرة .. لا رحت ولا جيت والبحث عند
الله مدارى ..

- يامه آنى مش هاجوز .. لا عواد ولا غيره ..
- سيبيها ياخاله اسباركه .. هبه .. رامية عينها على حرد
تانى ..

- ياعواد يابنى .. دى بنتى وأنى عارفها .. وحياء دى الليلة
ومساها يابنى .. م حد فى دماغ ست أبوها .. سيبيها شويه ..
الفرقة صعبه .. ودول يابنى كانوا .. زى الأخوات ..
- ياعواد يابنى .. شوف عدلك .. بنتى حصل فى دماغها حاجة
.. دى ياحبسة قلبى طول الليل تعيط .. وساعات تضرخ وهيه
نايمه ..

- ياخاله امباركة .. المرحوم ابراهيم قال لى .. انه م كانشى
بيحب ست أبوها .. زى م واحد هيجوز واحده .. زى م يكون
اخوها أبوها .. وانى مطرحه .. الجواز نصيب لكن انى خدام ..
زى ابنك نمام .. وست أبوها على كل حال اختى ..
- البقية فى حياتك ياست أبوها .. الدوام لله .. ماتحملين
هم .. أحنا محناشى غرب عن بعض ..

- كتر خيرك ياعواد .. عملت اللي عليك وأكثر .. لاكت عارفه اكفن
ولا ادفن .. ولا عارفه يمينى من شمالى .. كتر خيرك ..
- كان عندها حق .. مين كان يتحمل اللي حصل لها .. الدار
ناعتهم اكبر من الجرن .. تنام فيها ازاي ياولداه لوحدها .. والحاجة
الغريبة أنها ترد كل اللي راحوا لها .. مسكينة .. كان عندها حق ..
مين كان يتحمل اللي حصل لها .. آنى نفسى لما قالوا لى ياعواد ست
أبوها سدت الدار عليها ومبتطلمشى ادى جمعه بحالها .. خفت اخش
الدار عليها وكانت ليلة زى الطين .. دقيقت ع الباب م حدش رد
مرة .. واثنين وتلاته .. ادورت من ع السطوح .. ونزلت ع السلم
الخشب .. جزع نخله منجور .. لقيت نفسى جوه الدار .. سلمه
خرس .. ياست أبوها .. ياست أبوها .. خفت .. قلبى ضرب
والفار لمب فى عصى ..

ياواد ممكن ماتت .. ممكن هجت .. زى م بتهج فى ميعاد جمع
القطن كل سنة ممكن .. ممكن .. والدار زى الهو ..
- ياست أبوها .. آنى عواد .. أطلعى .. باشيفه عرام عليكى

حلفتك بسيدى ذى التون وحياة ابراهيم .. وفين .. وفين وفين ..
لما سمعت عياطها .. ياناس دا حرام .. دا الوليه دى تعذبت عذاب
الله يلعن الحب .. على اللي يبحبوه ..

- يا عواد .. كتر خيرك .. انا كده مبسوطه .. سيبنى ..

- انتى فين الاول .. آنى مَش شايف ..

- آنى فى القاعه اللى ماتت فيها امى ..

- اطلعى ياست ابوها ..

- سيبنى يا عواد .. اطلع اعمل ايه .. خير ربنا كثير .. العيش

فى المشنه .. والزير مليون ميه ..

- على الطلاق من حليمه بنت البرمى يحللها شيخ ويعرمها شيخ

ما اسبيك تنامى لوحدك فى الضلمه ..

الضلمه موتت قلبها .. الضلمه وحشه ياناس .. انى استغفر الله

العظيم يارب .. م أخفش من الملائكة اللى فى القبر زى م اخاف من

الضلمه .. الضلمه عملتها راجل .. فيه واحدة زيا كانت تشتغل

الشغل دى كله .. اراضى الوسيه .. ارضى ارض .. حوض حوض

.. فين .. والا فين .. والا فين .. انى يللى اسمى راجل ..

م اشتغلش زيا .. من ساعة م الوسيه تحط بذرة القطن ابد ست

ابرها ما تتعنى عن الخط .. تزرع .. تخلص تنقى الفلست ..

الهندوه .. تلقم الكيماوى .. الحاجه وحشه ياناس .. دى كانت بتسقى

نحت مكنة الميه بالليل مع الرجاله .. والا كاده .. ان الناس خلاص ..

قالت ست ابوها .. عادت راجل .. راجل يا خساره .. يا خساره

با اولاد .. الله يلعن الايام .. فين .. فين ست ابوها .. اللى كانت

تجمع القطر طول النهار فى بؤونة الحجر .. الشمس م تشوفنى

ابدها ولا وشها .. آخر النهار وهيه مروحه .. ولا بنت ناظر الوسيه

كعبها يبقى احمر زى الجزره وشها زى الطمطمه .. الله برحمك

يا ابراهيم مش ه انسى الموال بتاعك .. عندى من الور .. كانت

بستان ورد صحيح .. مين يصدق .. الناس معذوره .. محدش

شافها من اولاد الايام دى .. ورحتها تانى بعد م اجوزت وبعد

م جيت بسلامته ابراهيم .. على الحرام كان قصه خير ..

- ياست ابوها .. ربنا حلل الجواز من واحدة واتنين ..

- ياست ابوها سيدنا النبى .. اجوز بعد سننا خديجة ..

- ياست ابوها انا خدامك .. خليكى فى دار ابوكى زى ما انت

داني ومراى والعيال تحت رجلىكى ..

- كثر خبرك يا عواد .. عملت اللي عليك واكثر .. والاكاده الناس
عملاني ولي امرها الواد السعيد بن فرحة يقول يا عواد آني عاوز
اجوز ست ابرها وجاي لك . تقول لها . قلت لها .. اعمل ايه ..
اي حاجة احسن من الضلمه اللي عايشه فيها .. والشغل ليل نهار
في ارض الوسيه .. وارض اللي يسوي واللي م يسواشي .. انا
سمعت اباھتنا بوداني اللي هياكلها الدود .. انها بنت اصل ..
دارهم دي .. كان فيها بدل الجاموسة اتنين .. وبدل البقرة اتنين ..
حتى الجمل سمعت ان المرحوم ابوھا كان عنده جمل .. حكمة ربنا ..
صحيح زي م قال الله يرحمه الشيخ حلموش .. اللي يسأل ربنا ..
عملت دي ليه .. يبقى كافر .. راح فين دا كله .. الرجاله ..
اليھام والدنيا .. والاخر نصفصف عست ابوھا .. والطوفه تيجي
لھا .. لا ترضي بيه .. ولا بغري :

- يا عواد .. كنت انت اولي من السعيد بن فرحة والاثيره ..
دا انت جمالك م تتعديش .. عييت .. جيت لي .. الليمون
البنزھير .. وجيت مع المرحومة امي وخدتوني للشيخ .. وجيت لي
السحليه ربطتها في رقبتي .. وخدت الميه اللي الشيخ كتب عليها
ورشيته في سبع مفارق .. ولما امي ماتت م سبتنيشي .. ومعايه
زي اخويه واكثر .. والله فيه اخوات م بيعملوا كده .. كنت انت
اولي يا عواد .. لكن انا مش بتاعة جواز .. جواز وقلنا كل شيء
قسمة .. لكن اللقمة .. الحاجه وحشة دانت عفوفه .. ياما رجعت
الناس بزكاه رمضان .. وقير رمضان ..

- يا عواد اني مش هاكل الا من عرقى .. طول مانبه صحت ..
اروح واجي مش هاكل الا من عرقى .. لما اعيأ يتولاني اللي بيتولي
الناس كذا ..

- ياسنى .. ده مش عيب .. والاقربون اولي بالمعروف ..
- انت لسه هتعرقني يا عواد .. بعد العمر الطويل ده .. العيب
وقلته .. اتي يبخدشي حاجه من حد الابرقى .. الحمد لله .. الحمد
لله .. النصحة .. رضى .. ده ثواب .. سروح الفيض حسنه عند الله
يا بخت من نفع واستنفع يا عواد ..

- ممرڪ ناست ابوھا .. دماغك حجر .. ليتي يا وليه ..
- ابدًا والله .. سيدنا الخضر .. جالي في العلم .. وقال لي
ياست ابوھا .. سروح الفيض حسنة عند الله ..
- تب ريحي نفسك شويه ..

- ياواد باعواد .. الراحه بعد لقاء الله ..
.. تعامدت الشمس فوق « شرخه » عم عواد .. فارتفعت حرارة
الفيط وما فيه حتى قاربت الالتهاب خالتي الست العذراء .. ست
ابوها .. تظلل رأسها أعواد ملوخية خضراء مربوطة من جذورها ..
الاصابع الرفيعة الناشفة تقف مرتعشة على لوزة القطن .. الاولاد
يميلون عليها يخطفون لوزة من هنا ولوزة من هناك يخففوا الخط
أمامها .. الصهد حاصر عم عواد فهب فزعا من البئر المظلم البعيد
الذي وقع فيه .. سقط بصره على طرطور أعواد الملوخية الذي تحنى
به ست أبوها ..

- عمرطوبل ياست ابوها .. فين ياولداه .. لو ترضى البقاء في
منزلهاو يتكفلها عم عواد .. اقل لقمة تكفيها .. لكن رأسها ناشفة
وتعذبت بعنادها ..

.. ووقف وراءها .. نادى وادنا من أحفاده .. وامره ان يجمع
حرف القناة .. طلب من ست ابوها ان تستريح طول القيلولة تحت
شجرة الصفصاف في رأس الفيط .. رفضت ست ابوها .. اقسام
عم عواد ايماننا بالطلاق وبحياة سدى ذى النون والست ام هاشم
انه لن يترك ست ابوها تجمّع القطن في القيلولة .. أحسّت ست
ابوها ان عواد لا ينوي التزحزح عن رغبته اعلنت اليه .. انها ان
تتقاضى منه الا اجر نصف يوم .. وفي ضربة خاطفة قارنته بالوسية
.. وابتمست في وهن مفضلة اياه عن الوسية التي كانت تقطع اجر
اليوم كاملا .. لو مرض النفر او طرده الخولى قبل قطسة الشمس
احتد عم عواد .. واصر على عودة ست ابوها الى البيت ..
.. استلمها الطريق الى المنزل .. عزم عليها ان تتركب .. ابنته
ست ابوها في ود ..

- انت ياراد باعواد عقلك .. جرا .. له حاجة ..

- يا شيخه اركبى ملعون ابواننا ست كلها ..

وهاجم عم عواد عناد ست ابوها بمناسبة رفضها ركوب الحمار
وفي تلافيف دماغه احلام الظهيرة في ظل كيس القطن ..

- عمرك دماغك ناشف .. على الطلاق ..

- طلاق من مين ياخييه .. اجوزت اتنين ووديتهم .. يا عجز ..

يا نزش ..

ضحك عم عواد .. ولم يكن لديه أى نبض ان يصف ست ابوها
بالكبر او بالشيوخة .. لا سمح الله ..

استوى عم عواد .. على ظهر حماره الاسود المجوز وفي محاذاته
سارت ست أبوها .. الحمار يحرك رقبتة في تؤدة .. اذناه الكبيرتان
تهتران على وقع الحوافر البطيء .. تنغم صوتى وحركى بصاحب
الكلمات بين عم عواد وست أبوها .. عم عواد يعاتب صديقة
العمر .. فى ألم واضح .. فهى لا تاكل قدر مايتبقى من طفل ..
وخير ربنا كثير .. وقسما بمن رفع السماء بلا عمد عم عواد يشيل
اللقمة من فمه الى فم ست أبوها .. رجاؤه ان ترتاح .. لكن ست
أبوها تنفاجته ..

- فاضل اد .. ابه .. على مايكمل الجنيه

- دماغك ناشف ياست أبوها ..

- انادى اكمل الجنيه .. علشان أموت وانا مرتاحة اتى سايبه
تكاليف الكفن ..

.. كانا قد اقتربا من القرية .. اعترضهما الواد شحاته الفقير
الميرى .. أعلن الى عم عواد ان نقطة البوليس تطلبه فاصغر اولاده
غاب عن المدرسة بلا تصريح وحرروا له محضرا ومطلوب منه كلمتين
فى النقطة ..

- سحب شحاته عم عواد الى نقطة الشرطة .

قادت خالتي الست قدميها الى داخل القرية .. كنست صحن
الدار الواسعة ملأت البلاص من حنفية المجموعة ..

اوقدت الكانيز تسخن صحن اللوخية .. خيمت العتمة .. داخل
الدار الكبيرة .. رفعت رأسها الى السماء من صحن الدار المكشوف
بصعوبة تبينت شقا ابيض فى السماء .. حسرت انقرطة عن رأسها
عرت مقدمة شعراتها البيضاء ..

فتحت صدرها .. رفعت كفيها مفتوحتين فى مواجهة وجهها ..
وفى مثل عميق .. هل .. هلاك ..

- اجعله شهر مباركة ..

.. آمين ..

.. آمين ..

.. آمين ..

فرح سلامة

مبروك يا عم منصور

ولم يجب عم منصور .. كان فى دنيا ثانية .. كان وماقه يدور
 ... يوم ماكان راجع من القبط المغرب يسوق حماره الهزيل امامه ،
 وسحب الجاموسة والعجلة الصغيرة المربوطة فى رقبة امها ، وبين
 القافلة الصغيرة ، يسير عم منصور ، تصفع قامته المديدة ، هبة
 هواء بارو مرة ، وقطرات المطرمرات ، وبقدميه حذاء ضخم من
 الطين المخلوط بقش السكة واعواد البرسيم ، اما البشت فلا يكاد
 يستقر على كتفى عم منصور .. ذلك أن الطريق مزدحم بالجاموس
 الهائذ آخر النهار .. واذا مارات جاموسة جاموسة اخرى .. فان
 عيونهما تتسع أولا ثم يحدقان فى بعضهما ، واخيرا ترفع كل منهما ،
 رقبتها الى اعلى .. وسرعان ماالتفتى راسهما عند القرون فى نطاق
 رهيب .. وعم منصور يخاف على جاموسه ، فما ان يحس بقسرب
 الصراع حتى يلقي البشت على ظهر الحمار ، ويتفرغ بلا وقاء من
 المطر ، لحماية الجاموسة .. وعند اقترابه من باب الدار ينادى ،
 حوشى اللى فى السكة يا نظيره ، وتسرع نظيره باخلاء ما يكون فى طريق
 البهائم .. وتفتح باب الزريبة ، وتتولى هى عملية الربط والعلف ..
 وعند عودة عم منصور من الجامع ، تكون قد حضرت الاكل ، وحضر
 سلامه والاولاد .. ويتناول الجميع ، العشاء استعدادا للنوم عميق
 .. لكن تلك الليلة وضعت نظيرة الاكل فوق الطبلية وتساعد بخسار
 فنة العدس ، وثلاثة اربعة بصلات تحبط بصينية الفنة .. واقام
 عم منصور من اصابعه للبصر والوسطى والسبابة شيئا يشبه
 مشط الفاس ، وقرزة فى الفنة وباصبعه الابهام حصر اللقمة
 ورفعها الى فمه ، وكانت ساخنة ، فتفخ .. ثم حدد بصلة ورقم
 قبضة يده وهوى بها عليها فتفتشت ، وهم ان يمد يده للقمّة
 ثانية ، الا انه لاحظ ان سلامة ابنه لايزال جالسا القرفصاء فى ركن
 القامة ، وقد اتخذ هيئة من يستعد لشيء ما .

- ماخش تاكل يا بنى .
- لا .. مش واكل .
- ليه .. انت العشيت .
- الكلاب اهى بتاكل .. خذ بيموت من الجوع .
- مال الواد ده يا نظيره .
- ياخويه مالش وعوة .. انت حر انت وابنتك .
- أنطقى يا عمر يا جاموسة .. الواد زعلان ليه .

- انا مالى ، هو .. هاوژ .. يجوز .
 - جواز ايه ياسلامه .. مش تستنى يابنى لما يفيض لنا قرشين .
 - هاستنى لامته .. ثلاث بنات درت عليهم والآخر اجوزو غيرى
 وانا بقيت مثله فى البلد .. هاجوز فاطمة بنت الشيخ عطيه .
 لا مانس سارج .
 - اللى ماسرحش مياكلش .
 - انا عارف انك هاتقول كده .
 وتدخلت الام - من بعيد .. من وسط الدار .
 - حوز الواد يامنصور .
 - اسكتى انت مالكىش دعوة .. يطور الله فى برسيمه .
 - ماليش دعوة ازاي .. هو مش ابنى والا ايه .. يعنى لما يعملها
 ويطفش زى مابقول مين اللى هابنفعنا .

-
 واحس عم منصور بالهزيمة .. ولكنه تحامل .
 - هاجوزه منين يانظيره .. الايجار يادوبك سدينه ، والقرشين
 اللى زادوم جينا بيهم هدمتين واشترينا الجحش .. والكيماوى بكره
 ربنا يفرجها نبيع شوية قطن صيفى والا شوية رز والسنة الحاية
 ربنا ماينساش عبده .. وخاف سلامة ان يقتنع بكلام ابيه ،
 فعاجله .

- شوف .. ينساه ماينسهش انا ماليش دعوة .
 ... وقضى عم منصور ليلته مشغولا .. فهو لا يملك مايحقق به
 رغبة ابنه ، وعرف من كلام زوجته أن الولد قد يهرب ويشتغل فى
 قرية بعيدة ، وهو لا يستغنى عنه فى الفيظ ، فسلامة هو الذى
 يقوم بالعمل فى القدادين الاربعة ، وبدأ بالرجل ميل الى لوم ابنه ،
 ولكنه راجع نفسه فالولد قد احب ثلاث فتيات ثم تزوجن بغيره
 لكثرة تأجيل ميعاد كتب الكتاب ، والارض على راي المثل « اللى
 يحبيه القرد يعلق به الجحش » واحس الرجل انه فى ورطة ..
 واخذ يبحث عن حل .. وكان النعاس قد حوم حوله عندما استقر
 على ان يزور الشيخ عطيه ، ويستمهله كتب الكتاب الى السنة
 القادمة .

... وفى الصباح بدأ سلامة حركة العصيان المدني ، قلم يتناول
 انظاره ولم يحمل فأسه .. وآثر عم منصور السلامة ، فعاد قائلته
 الى حقل البرسيم .

... وبعد صلاة العشاء كان عم منصور يطرق باب الشيخ عطيه ،
وبعد الترحاب والسلامات ، بدأ عم منصور ممهدا للموضوع
مستمعنا بالقراءة البعيدة والجوار .. وانتقل الى حالة الأرض وما
تنتظبه من تعب ، ثم أردف متزلفا ، بعد أن أشبع أبناء اليوم
تقريبا ، « هو أنت ياشيخ عطيه كنت حتقدر تفتح عينيك في وش أبوك
المرحوم جاب الله ، أهو ده الأدب صحيح » وطرق الحديد ، ظنا منه
أنه قد سخن ، وأرددت المطرقة ، خائبة ، فالشيخ عطيه ، ربنا
يبارك ، عنده اربع بنات ، كبراهن فاطمة والمسالة أستوت ، والرجل
يريد أن يطمئن على مستقبل بناته قبل الرحيل ، والبنات ان كبرت
ضاع سوقها « وحرام برضه يامنصور ، نفوت سوق البنات » وخرج
عم منصور مهوما ، فالحل الذي كان قد اطمأن له خاب ، وهو بين
أن يزوج سلامة من فاطمة ، وقد اخذ مهلة اسبوعا ، أو ان يترك
سلامه يعملها وبطفش ، والأرض تبور ، وتبقى فضيحة ..
وماكاد عم منصور يضع قدمه في الدار ، حتى فاجأته نظيرة .

— خير بابو سلامة .

— خير نانظيرة .. الرجل المكروت عطيه بن جاب الله الحرامي
مرضاش البنات تسنى للسنة الجاية ، وهو سلامة جاته الغم مش
لاقي إلا الناس الواطية دي .

— البنات يامنصور .. شهادة لله .. طيبة وشاطرة .. تقوم
الفجر تملأ الزير وتكنس قدام الدار .. وتلرز الجلدة وتحلب
البقرة .

— شاطرة ، الأعيولة .. احنا في الواد اللي هايعلطنا وبفضحنا .

— ماتبيع يامنصور قنطارين قطن صيفي .

— باستي ما انا هايبيع عشان الكيماوي .

— بالرة يمكن ربنا يوسعها .

— هايوسعها منين .. الحكاية اربع فدادين .

— اشترى ابنك يامنصور بقنطارين قطن .

— اشتره يانظيرة بخراينا ؟؟

— ياخوية ربنا يخليك وبابو سلامة ياما الجمل كسر بطيخ .

— وبام سلامه ياما البطيخ كسر جمال .

... وفي هذه الليلة نام عم منصور مستسلما مهزوما ، يستعرض
في ذهنه أسماء الناس الذين سيبيع لهم القطن بنصف الثمن نظير
تأجيل التسليم حتى جنى القطن ، وبرزت مقارنة في دماغه .

منصور على أيام « المرحوم أبوه » لم يكونوا يعرفون قطن صيفى ،
كان الواحد أن احتاج قرشين يستلفهم من جاره ، ويرجعهم له
قرشين ، لما ربنا يفرجها ، أصل الناس فى البلد . كانت أيامها كلهم
فقرا . ٩

.. عم منصور ، كرجل فقير ، مكانه فى المسجد اثناء الصلاة ، فى
الصفوف الخلفية ، فجلبابه البالى المتسخ ، لايسمح له بحشر نفسه بين
وجهاء القرية فى الصفوف الاولى التى تلى الامام مباشرة ، وهو
لا يتذكر أبدا مع انه يمارس الصلاة منذ اكثر من عشرين سنة انه
صلى فى الصفوف الاولى ، لكن هذه المرة فى صلاة الظهر ، خرج
الرجل على قواعد البروتوكول ، ووراء الشيخ القزمازى مباشرة ،
أدى الصلاة ، وبعد التحريم وخلافه ، خرج المصلون ، ولم يبق الا
منصور وفضيلة الامام ، وخادم المسجد ، وتقدم منصور ، على
استحياء .

- الا ياسيدنا الشيخ .

- خير يابنى .. خير

- انا كنت عاوز قرشين لحسن الواد ..

واراد الرجل أن يستطرد فى حكاية طويلة ، الا ان الشيخ
القزمازى قاطعه :

يا ابنى كنت ارجو ان انال ثواب اقراضك ماتحتاج ، فالتبى عليه
الصلاة والسلام يقول ، من قرج عن اخيه كربه .. وادرك عم منصور
نظراته الصافية أن الشيخ ظنه يطلب سلفة ، فبادر موضحا .

- انا عاوز ابيع قنطار ونصف صيفى .

- تبيع قطن صيفى ، أين ارضك .

- فى حوض الجميزة ..

- ارض جيدة ، ولكنى سمعت انك تريد تزويج ابنك ، فانت
ستحتاج لمبلغ كبير ، واخشى الاستطيع تسليم القطن .

واخذ الشيخ القزمازى يحاور عم منصور ..

وعندما خرجا من المنزل كان فى جيب عم منصور ثمن قنطار
قطن ، رضى آخر ، هو من باب الاحتراس كما سماه الشيخ
القزمازى ، عقد شركة فى الجاموسة ، فيه ان الشيخ دفع نصف
ثمنها ، وان منصور ملزم بالمحافظة عليها ، وعدم التصرف فيها ،
الا برضاء الطرف الاول ، وهو طبعا الشيخ القزمازى الذى دعاه
لمنصور أن يشارك له الله فيما هو مقدم عليه ، أما منصور ،

فأغلب الظن انه لم يسمع دعاء الشيخ ، فقد كان يستعرض أسماء
الفئة التي تشتري القطن على أجل ، وله من استعراضه غرض
ظاهر ، هو ان يختار التاجر الذي يتوسم فيه بعض الطيبة ، وامكان
انتظاره استلام القطن لعام آخر ، فليس من الممكن ان يتوافر عنده
قطن يكفي تسديد الإيجار والوفاء بالكمية التي باعها على أجل . .
وبدا له ان ليس قبيح من يفضل على غيره ، فكلهم اولاد كلب ؟

واستقر على ان يذهب الى عبد الرسول ، ابن العمدة ، تبقى
معرفة ، ويمكن يحتاجه في كده والا كده .

وبعد صلاة العشاء حملت عم منصور قدماء الى بيت العمدة ،
ليقابل عبد الرسول افندي ، ولم يمض عليه عبد الرسول حتى يتم حديثه
بل اخره بانه يعرف كل شيء ؟ مقدار ماباعه للشيخ القزمازي . وعقد
شركة الجاموسة ثم قال مستعجبا :

- لكن يا عم منصور ، والجاموسة دي الوقتي مش بتاعتك اخويا
له فيها النص ، والنص بتاعك بعته للشيخ القزمازي .

- ايدا والله ، انا مابعتش النص بتساعي ، دا بس من باب
الاحتراس .

- احتراس ايه يا حمار ، هو المحاسنم عارفة احتراس والا
ما احتراسش ، قدامها في الورق انك بعث وخلاص .

- ياسيدي ربنا يجيبها سليمة ، وان شاء الله اسلمك اول
ما اجمع .

وعبد الرسول - كتاجر - خبيث اصيل ، هو يطلب ضمانا للوفاء ،
والجاموسة لم تعد ملكا لمنصور وخساعط بنفسه « والفلس يقلب
السلطان » واحتج منصور الطيب على وصفه بالفلس ، وقال ان خير
ربنا كثر ، ولم يهتم عبد الرسول ، فقد كان يطلب ضمانا لدى
منصور لا عند الله . ثم فجأة :

- هم منصور ، انت عاوز تبيع قنطارين قطن صيفي ؟

- ابوہ ياسيدي ، قنطار ونصف ؟

- اسمع من باب الاحتراس ، تبيع لي الاوضة بتاعتك اللي على
الشمارع .

- يانهار اسود . . ابيع بيت ابويا ياسي عبد الرسول .

- باراجل افقل . دا مش بيع دا من باب الاحتراس . ؟

وانت بتقول هاتسلم يوم ماتجمع القطن . وساعتها خذ كل
اوراقتك .. وفى استسلام وقع بختفه او بالحتة الصفيح ، كما
سمها هو ، لعبد الرسول ، وقبل ان يضع ثمن قنطار القطن فى جيبه
كان قد تعهد بتسليم عبد الرسول قنطارا ونصف قنطار قطن ..

وشئ هو من باب الاحتراس ايضا ، عقد بيع الحجرة التى تطل
على الشارع والتى يحدها من الغرب فلان ..

... انتفخت اوداج سلامه ، فلن تتندر عليه بنات القرية بعد
الآن ، ولقد أثبت رجولته وسيتزوج فاطمة بنت الشيخ عطية ،
سيد اسباد البلد ، كما سمته نظيرة ، والرجل الذى لا يساوى
مليا ، كما يراه عم منصور .

اما الشيخ عطية نفسه عند تحديد المهر ، فلم يكن اقل
من على بن احمد او فلان وفلان ، وبردف قائلا « وعلى كل حال
ياشيخ منصور ، كله راجع بيتك » ويرد منصور ، ياشيخ عطية ،
نسبك كفاية ، هيه الاصول ضاعت والا المسالة فلوس بس « واثمر
رد منصور فقد قنع الشيخ عطية بما يحمل منصور من فلوس هى
ثمن ماباعه من قطن ، وبقيت أشياء صغيرة ، كام اقة بطاطس ، وكام
رطل طماطم ، وكيلة رز ابيض ، مطالب كلها بسيطة ، يقدر عليها
عم منصور بلا ارهاق اما الشئ الذى يعجز عنه حقا ، فهو افعاب
المأذون وحمل الرجل الهم ، فسرّج مرة ثانية الى الشيخ القزمازى
فهو بلا حسد ، امام وخطيب ومن ذوى الاملاك وتاجر ومأذون القرية
السعيدة ، ومرة ثالثة باع منصور ربع قنطار قطن ، ولم يقبض من
ثمنه هذه المرة شيئا بذكر .. وقبل ان يمر اسبوع المهلة ، كان
بيت الشيخ عطية يعج بالناس الرائحين الغادين فى وسط الدار
اما عليّة القرية ففى مندرة الضيوف يضيئها كلوب غانم الحلاق ،
وفى خارج الدار اجتمع النسوة بصفقن وبغنين « ليه ياابن عمى
تتجوز عليه » .. فيرد الفريق الآخر من النساء « بجوز عليكى من
وسخ رجلكى .. حنى واتسليمهم وانا ارضى عليكى » .

والجميع فى انتظار الشيخ القزمازى الذى يحضر على مهل ووقار
وقد سار خلفه بعض اهاالى القرية يحملون دفتر القسائم ودواية
الحر والريشة ، مكتوب عليها بخط ممسوح « الحكومة المصرية » ،
وقبل ان يبدأ بصر على سؤال فاطمة عن توكله .. ويضع سلامة
يده فى يد الشيخ عطية ويخرج فى شهامة منديلا جديدا ، بفردة

فوق اليدين المتشابكتين ويردد الشيخ عطيه وسلامة كلمات السحر
وراء الأذون وحالا يحل الحرام ..

ولا ينسى الشيخ قزمازى ان يتسلم المنديل الجديد ويدسه فى
جيب الكاكولا .. وتنطلق الاعيرة النارية ويميل الشيخ قزمازى على
عم منصور .

- مبروك يا عم منصور .

.. . .

الليلة الجاية

الشمس . هناك . على مدد الشوف ، كحفرة مملوءة بالاولاح المتوهجة .. وهى لقربها ، تستطيع - كما يقول عم زناتي - ان تخطفها بيدك .. ابو قردان عائد ، ليقضى ليلة فوق اشجار الجميز المعجوز حول قريتنا ، جماعات ، جماعات ، كاثواب القماش الدبلان تحملها الريح .. فى الحقل ، خرج الناموس من الادوار السفلى لاشجار القطن ، يملأ الجو طينسا كثيبا ، ولدغا موجعا .. سسكك الفيضان تشهد حركة نشيطة . الجاموس والبقر مسحوب الى الفيضان ، اكياس الدريس فوق الحمير .. عدد السواقى مربوطة بالاحبال .. نساء راطفال ورجال ساجبون راكبون ، حاملون .. حركة فى حقول قريتنا .

... الجدع زيدان ممتطيا شجرة الصفصاف ، ويضرب بفأسه فرعا ناشفا ، وتكاد تسمعه يحدث نفسه « دى مش فدان قطن اللي هانبات له عند الساقية جمعة بحالها ، منعرفش نسقيه » صوت عم زناتي ، ياتي من الجانب الاخر لمدار الساقية ، يحذر الولد زيدان ، من ان يتكسر الفرع الذى يركبه ، ثم لنفسه « يعنى القطن هايجب ولد .. قطيعة ، والله م يجيب تكاليفه » ثم يأمر فهمي ، ابنه الثانى ، ان يرمى للجاموسة غلفة دريس ، ويتأكد من رباط الحمار فى الوتد ، فالليل داخل ، والحمار مشاكس ، كشر! ما رجع الى الدار وحده ، وتركهم فى الفيظ يوسعونه شتما وسبا . ويهدأ عم زناتي قليلا ، ويخرج من جيب جلابيته علبة السسجائر سمسون ماتوسيان - وفى سره - « والله ياربى ماييكيف » ويفتح علبة الكبريت فيجدها فارغة ، ويتذكر انه نسى ان يطلب عودين كبريت من الشيخ سليمان البقال ، وهو يشتري السجاير ... ويلتفت حوله بحثا عن فرحات جاره فى الارض ، والذى سيتسلم الساقية بعد ان ينتهى هو من رى ارضه ، فلا يجد الا بقرة فرحات مربوطة بجوار غبيط الدريس ، وعزال الساقية الخاص به ، او قل

ان بعضه يخصه ، والاخر استعاره من ناس جيرانه فى الدار ، ويسأل عم زنائى ، ابنه فهمى ، عن فرحات ، فيجيبه فهمى .. راح الدار يتعشى ، ويجيب له كيس يتغطى به .. ففرحات فلاح واع ، يعرف جيدا ، ان ليس خيرا من الكيس غطاء ! عند الساقية . فى الجو الملبد بالناموس ، فتسمراته تمنع الناموس من الوصول الى الجسد ودس ابرته فيه .. وتهتز السيجارة بين شفتى عم زنائى ، وتنقل الى اصابعه ، وهو ينادى رشاد ، الذى لا يجيب ، فرشاد اخبره الخفير بان التربة ، ستفيض الليلة على الجسور ، وسيروى فطنه الذى مات من العطش ، واستعدادا لوصول التربة ، كوع رشاد ، بجوارالساقية المجاورة لساقية عم زنائى وشركاه .. وضاق خلق عم زنائى بحثا عن ولعة سيجارة ، وزعق فى الولد فهمى ابن الكلب ! يعنى مش عارف اولع السيجارة ؟ .. « سافيتان فى البر ده وسافيتان فى البر الثانى وعند كل ساقية بدل الرجل خمسة .. ومش لاقى اولع السيجارة .. ايام سودة بصحيح . مش كفاية انقطن فات اربعين يوم ماشفش المبة .. لما باه يصعب على الكافر » ثم اردف « باواد يا فهمى يابن ستين كلب شوف لى ولعة سيجارة من تحت الارض ، وتمتم فهمى - فى سره « اصل الناس لما بتكر بتخرف » واتجه فهمى الى البر الثانى للتربة ليسأل عن كبريت ، فغير أن الولد الفطن ، قبل ان يخرج من قلب التربة الجاف ، شم رائحة ما ، هى بالتأكيد رائحة الشرب الناشف بمنص سيل الماء ، وحانت منه التفاتة ...

فشاهد الماء مقبلا يتهادى ، ورقص قلب الفنى كما كان برقص ليلة أن ابتسمت له سجيده .. والحق يقال أن رؤية الماء فى الحقل بهجة وفرح .. حتى أن فهمى نسى حكاية الولعة ، وهتف « وله يازبدان .. وله .. المية جت » وقفز زيدان من فوق فرع الشجرة ، بعد ان التى بالفأس بعيدا .. واسرع عم زنائى واخرج غلبة السجائر من جيبه .. واعاد السيجارة الى قاعدتها ، ورشاد ، الذى داسه الحمار مرة ولم يستيقظ هب مدعورا ، والجماعة المعسكرون فى البر الثانى .. التقطوا هم الآخرون ، بشرى قدوم الماء واتجه الجميع الى صوب قلب التربة .. يتأكدون من صحة الرواية . فالرواية لو صحت لكانت معجزة .. فهذه السواقي الاربع النحوسة ، تقم فى آخر التربة ، ولا يصلها الماء ، الا بعد أن يمر على عدد بلا نهاية من السواقي ، ولقد تحققت المعجزة ، ووصلت المياه تحمل معها

أعواد القش وفروع الأشجار ، وجثتين أحدهما لكلب ذلك أن جث
الحمير التي نفقت لم تستطع المياه وهي مازالت ضعيفة على حملها . .
فذلك سبباً أخرى بتحملها عم زناتي وجيرانه ، فالى أن ماء التربة
لا يصل إلا بعد أن يشبع منه الجميع ، فهو عندما يصل بحمل اليهم
تشكيلة من الجثث - شهادة لله - لا تسر الناظرين .

وعلى الفور ، بدأت الجلبة البنى آدمية ، فى هذه البقعة النائية ،
فى نهاية تربة بلدنا ، بدأت العمل ، البهائم مسحبت فى قسوة
وعجلة . . ودارت السواقى واندفعت المياه تشق طريقها الى
شجيرات القطن . . وتوزعت الاختصاصات ، زبدان ، الولد الكبير ،
حمل الفأس ، وسار أمام ماتصبه الساقية من ماء يقذف الحجر
بعيدا ، ويقتلع مافى المجرى من حشائش ، يرفعها على حافتي المجرى
وتسير المياه مذنشة كالعروس ، على دندنة سى زبدان ، الولد فهمى
خلاص ، البحث عن ولعة للسبجارة لم بعد من اختصاصه ، عليه
أن يمسك بالفرقة ويلف حول الساقية وراء الجاموسة ، فاذا ماتوانت
طرقت الفرقة على ظهرها محدثة صوتا كأنطلاق البارود وتارة
على ظهرها شريطا من اثر الضربة ، وبعاودها مافاتا من نشاط ،
وتناوب عم زناتي من بعيد - احساسان ، الاول ، قضبه من
اجل ضرب الجاموسة ، الثانى ، فرصة ، ان الولد فهمى ، ابنه ،
كسر وبلغ مبلغ الرجال . واستطاع استعمال الفرقة وبكاد الاحساس
الاول بتغلب ، وبستعمل لسانه فى تأديب ابن الكلب ، اى فهمى
ابنه ، لولا ان باتيه ، صوت الولد فهمى يردد « سبع سواقى يدوروا
ماطفوا لى نار . . بامنية القلب قل لى . . ازاي عشق الجار ،
يبقى النظر فى النظر ، والقلب قابد نار ، وتحول الشجيرة الى
زئمة مسموعة ، ويتذكر عم زناتي ، على الفور ، ابام ماكان فى مثل
سن ابنه فهمى ، وسمعه انوه يشدو بالكلمات اياها ، ولحقه بكف
غليظة على قفاه اوقعه ارضا ، وهو يقول له « حتى انت بامفوص »
وتحسس عم زناتي قفاه ، دون قصد ، وقال ، دون ان يلاحظ بلاش ضرب
الجاموسة بان ستن كلب « سبع ضربات تلهفك با مففوص » وهبت
نسمة قوية ، سطلت عم زناتي ، وسرح . . ابام المرحوم ابيه كان
يرفض استلام الارض لزراعتها . عبش الشعر ، علف الحمير هذه
الايام . . الجلايب الزرقاء . على اللحم . . و . . و . .

وانتقل الى حلم ، الولد زبدان ، خلص رى الارض من الدماغ للراس
وبنادى ، حل الساقية يا فهمى ، حل الساقية باوله . . ويتقدم هو

عم زناتي ، يقف على مدار الساقية ، بهدوء يوقف الجاموسة ويحل
غماها .. يمسك بالدشيدة ليرفع الناف عن رغبها .. مخاطبا نفسه
فهى م نام من زمان ، هم اولاد الابام دى يعرفوا سهر والا شغل ،
الجزوة قطعت نفسهم .. وتوقظه ، فى رعب ، عم زناتي نفسه ، طرقة
فرقة فهى يسوق الجاموسة ، وخيل اليه هذه المرة انها طرقة مدغم
واستيقظ عم زناتي حائقا ، بلعن فى سره هذه المرة ، الولد العفريت ،
وضايقه انه هو الذى نفس ، لا فهى ابنه .. كما كان .. يحلم .
ومن جديد ، اخرج السجارة ، وحانت منه التفتاة الى البر
الثانى للترعة ، وشاهد بجوار كل ساقية ، كومة نار ، وسحابة كثيفة
من الدخان ، هى بلاشك لطرد الناموس ، ولا يبق من يبيت بجوار
الساقية ليلا ، من الناموس ، الا نسمات الهواء ، وسحابات الدخان
.. وتحرك عم زناتي بنفسه هذه المرة . يجمع فروع الصفصاف التى
كان زيدان قد قطعها ، وبجوار الحفرة التى اعدّها للنار ، بدأ يكسر
الفروع الى قطع صغيرة ، استعدادا لاشعال النار ، وتدخين السجائر
وابداء الملاحظات لابنه فهى ، ولاقلاق فرحات ورشاد ، شركائه فى
الساقية ، والعزومة على جيرانه عند الساقية الثانية ، وربما على
رجال الساقيتين المقابلتين فى البر الثانى بكوب شاي « يسهركم للصبح
والنبي يا اولاد » ..

ولكن عم زناتي سمع شيئا ضايقه ، هو بالتحديد ، صوت ارتطام
خوافي عيون طمبوشة الساقية بما فى البشر من ماء ، وكما تعرف
ست البيت رهى فى الحجرة ان جاز الواور فى المطبخ ، قد نفذ من
صوت تشخيره ، فكدلك ، عم زناتي ، عرف ان هذا الصوت له دليل
واحد ، هو ان ماء الترعة قد انخفض ، وان الساقية موشكة على
الوقوف ، وان كمية الماء التى تنزحها الان ، تضر القطن اكثر مما
تصلحه ، حيث ان رى الارض سيستغرق اياما ، يصفر القطن اناءها
وتتهدل وريقاته ، واسرع الرجل الخبير الى شاطئ الترعة ، ليرى
بالعين ما نبأه عنه السماع ، وهناك عرف الخبير اليقين م بالترعة من
ماء لا يكاد يكفى ساقية واحدة ، فما بالك ، وهو موزع على سواق
اربع .. ولم يملك عم زناتي وقد تصور مالحق القطن من خسارة ،
سوى ان بنادى بما يشبه الصراخ « ولاد .. ولاد » وتجمع الاولاد على
استغاثة الليل ، فهى متسائلا فى خوف عما حدث رشاد وفرحات .
وهب كل من عند الساقيتين المقابلتين فى البر الثانى ، على صوت عم
زناتي .

... وعندما اجتمع الرجال حول الترعة .. راعهم مقدار التناقص

المتزايد فى منسوبها ، وبدأت التعليقات حزينة ، ساخطة ، ساخرة
سامة ، لاذعة ، وكلها منبعثة عن احساس واحد ، الغيظ المكثوم
وانتهت التعليقات الى مرحلة اخرى ، الاقتراحات ..

- نلم على الغدان نص بريئة ونبعت تلفراف لبتوع الهندزه .
- لا - وكان المتكلم ازهرى خائبا - مش للهندزه ، لتفتيش الرى
- هو ده وقت الحنبلة ، ياشيخ تابمى الهندزه هى تفتيش الرى
وتفتيش الرى هو الهندزه .

- يا جماعة ما احنا غلبنا تلفرافات .. عملوا ايه ؟
- يعنى تقعد ساكتين لما القطن يموت قدام عينينا ؟
- وهزت الجميع كلمات .. موات القطن ، وتقعد ساكتين ، ونفر
عم عيسوى ، من رجال البر الثانى ، نفره من نفراة .
- نبعت تلفراف للحكومة

- هى الحكومة هاتعمل لكو ايه ؟
- شوفوا يا جماعة الكلام .. هيه الحكومة لازمتها ايه ان ماكتش
تجيب للقطى ميه ؟
واسهم زيدان الذى جاء من ذيل الارض . بعد ما انتقطع الماء عن
الوصول اليه .

- يا جماعة انا تحت فى الدبل . كت سامع حاجه زى تكنكة وابور
- بس .. لا تلفراف ولا حكومة .. مكنة الحاج طاهر .
عم زناى لابنه « ياتك الفم .. انت مالك ياواد ومال مكنة العمدة »
- الا ماله ومال مكنة العمدة . ياراجل الخوف من الله واسع ..
هو ان كان الحاج طاهر شارى لك جاموسة بالمقاومة .. هو القطن ان
ضاع هاتعرف توكلها .

- يا جماعة عن نفسى - وكان الصوت لفرحات - انا مكسور له
من السنة اللى فاتت فى خمسة جنيه ، غيرهم السنة دى بستة جنيه
ونص واصلهم كانوا شوال كيماوى ، بتلاته جنيه ، وده غير كيماوى
وبذرة السنة دى . يعنى لو أشتكاني حبييعنى الدار ، ولكن وحق
شباك سيدنا النبى ماسيبه ياخذ شوية المية اللى جايين لوحده ،
واهتز زيدان .

- يسلم يمينك ، ياچار الهنا ، يله بنا يا جماعة على المكنة تكسرهما
حتت ، احنا كلنا مجرحين له انا عارف ، ربنا سايبه ليه ده ماتقول
ياشيخ تابمى .

- ياواد بلاش جهل ماتعرضش على حكمة ربنا .

— بله بناياجماعة .. بله .

وكانت فأس زبدان في يده فرفعها على كتفه ، والولد فهمي شال فرع صفصاف ، وفرحات فأسه ، ورشاد عصاه ام جلبسة حديد في اسفلها ، والتي ضرب بها ذات ليلة قط بريوي ، فانقطع نفسه ، وعم عيسوي فرقته ذات السوط ، وحتى الشيخ تابمي طالب الازهر الخائب ، في يده عصاه ام يد معقوفة .. نهايته ، كل من الجماعة شد قبضته على مافي يده .. وتحركوا نحو المورد ، تحرك العطاش تاركين الاطفال دون قصد او تدبير ، لحراسة البهائم والغطيان .

— اضرب طلقة في الهوا ياوادي احسن .

— دي بندقية الحكومة ياحضرة العمدة .

— ياتك داهية امال أنا عارف انهابندقية امك بهانة ، هو انتم ياغفر شاطرين الا في طواجن اللبن واناخر الفته .

— اضرب نار ياوادي احسان .. بس اوعى تصيب حد ياصعدي تبقى قضية ومحامية ودوشة دماغ .

ورد عم عيسوي ، هايضرب مين ولا مين يااحاج طاهر ، وارتم دلي الحاج طاهر : انت بتتهجم على يازناتي .. والله لابايع الجاموسة من الصبح .

واغتاض عم زناتي « باراجل هو انت ربنا قطيعة الجاموسة على ساحها ثم لانه » اسكت ياولد يازبدان بلاش شتيمه .

وتدخل فهمي بصوت ضائع في الهبة مهذا العمدة ، بأنه سيدبم له الجاموسة قبل بيعها ، وفرحات يقسم بالطلاق ان موته الليلة كوم وتكسر الوابور كوم آخر .. وانطلقت رصاصة في الجو .. وتسلس ولد والقي بفرع سنط امام الخرطوم الذي جذب ماء الترعة كله ، وعلا الضجيج ، ولم يستطع الحاج طاهر ان يميز الاصوات ، بعضها يشتم والاخر يهدد .. وغيره يطالب بتقسيم الماء .. ورابع يقترح ان يقف الوابور وتدور ساقية والشيخ تابمي سيبرق لوزير الداخلية ولوزير الاشغال العمومية .. والترعة تقف فاصلا بين الفريقين وصاح جدد من رجال سواقي البر الثاني .

— بس ياجماعة .. عاوزين نتفاهم .. ده برضه حضرة العمدة ، ولكن جدعا آخر ، امسك بحجر وحدد مكان الوابور في الظلام وبعزم اسه واه والننت التي سيتزوجها من ثمن القطن ، وقذف بالحجر . وكان آخر صوت . تقطع اسلاك ، وتحطم اشياء صلبة . ووقف الوابور ..

وتجميع الماء في الحفرة التي امام الخرطوم ، ثم اندفع يشق طريقه
سوب العطاش ، بين فترة همود على الشاطئين .. وتكلم العمدة .
شائما الخنازير الذين يعرفهم واحدا واحدا .. وصمت الخنازير ،
وهو لا يعرف من هدد ومن سب ، ومن شتم ، بل هم أنفسهم لا يعرفون
كيف حدث او ماذا حدث بالضبط ، كانوا كمنين انتهى نوا من مواجهة
امراة .. فهو في دهشة واستكثار واستغراب بل وتكذيب لولا انه قد
حدث .. حدث فعلا .. وكان قائما .. كذلك الوابور الجريح .
وهم الحاج طاهر ، ان بيعت في احضار الوابور الثاني ، سم
الفوانيس والكلوبات تجعل المكان مثل الظاهر .. لولا ان قلبه لم
بطاوعه من الداخل .

وفي الصباح ، اضاءت الشمس الحقول .. واصبح عم عيسوى
هو هو عم عيسوى وليس عم زنائى .. وتكتك وأبور من جديد .
وعند مرور اهالى قريتنا على حفل العمدة لم يصدقوا ان الحكاية
الى ما زالت ساخنة ، فقد كان عم زنائى وعم عيسوى وفرحات
يفسحون القناة امام ما يقذفه الوابور من ماء الترعة فى غيط العمدة !
وعندما تجابههم الرؤية بما يكونه ، بتلفت بعضهم الى بعض فى
سداجة قوبة ظاهرة ويقولون : مين عارف أما يبجي الليل هايحصل
ايه ؟!

الليل .. الرحم

.. الاطلائ الستة عشر تضغط وجه الارض في قبلاات منلاحقة .
ثقلية ، تاركة خلفها صفين من الاقواس الهلالية .

سلاح المحراث يشق سطح الارض . قبل أن تندمل شفيرتا الخط
المشقوق يستط وسطه سروسوب منتظم من حبات الدرة فيلتئم عليها
- كالرحم - بتهيا لميلاد جديد .

كف عم الوهيدي اليسرى تمسك بيد المحراث خشية أن يسبخ
اعمق من العمق الذي يريده لانبات الدرة . يمناه تضم ارجالا طويلة
تنتهى الى اذان بقرتين سوداوين ، يخلص نسبهما بحكم المجاورة فى
الزمان والمكان ، الى نسب عم الوهيدي . بالايجابال الموصولة يعسد
الرجل البقرتين او احدهما الى الخط اذا ماعن لايهما أن تنحرف
عنه .

على الكتف اليمنى ، تستقر قلقة فرقلة تلسع - عند اللزوم -
الجلد الاسود الفطيس ، وهنا يبذل العجوز مجهودا منتبها ؛ ليحفظ
توازن العمق والاستقامة للمحراث ، وليشرح ظهر الحيوان بالسوط ،
وقبل أن يفلت منه واحد من خيوط العملية ، يرتفع صوته مخاطبا
واحدة من البقرتين يميزها بشدة ودودة من اذنها .
- لا .. ارجعى .

وترجع البقرة بعد أن تنفض راسها نفضتين : عليهما تملل او
مشروع تمرود مضى عليه ستة آلاف سنة ولم يتحقق ، على أنهما -
النفضتين - لا تخلوان من عتاب دينى صامت مستسلم قدرى
حزين .

على هذه الارض نفسهارعى عم الوهيدي جاموسة المرحوم ابيه ،
كانت الارض هيشة ، تغطيها اعواد الفأب الرفيع واشجار الطرفة
والسمار ويغرش سطحها حصير من النجيل والحلفاء ، وفى الحوائى
شجيرات السريس والجلالوين ، ويركد دائما عمق اصبعين من الماء
يسمح لسمكة او ضفدعة او لعبان مائى أن يعمر بالحياة سطح الهيشة
.. ويحار العجوز ، الآن ، كيف أن الالباء الهبل تركوا ارضا واسعة
كهذه هيشة ، لمجرد رعى الجاموس الاعجف والبقر الناشف . لم

يقتنع بينه وبين نفسه ان الأرض يفصلها عن البلد مشوار طويل .
كان صغيرا لا يستطيع ان يرفع مقطف السباخ الى ظهر الحمار
يوم تعارك مع الواد بركات ابن ستهم . يومها أظم العيال - تاركين
البهايم تنحت اوراق النجيل . خلصوا رقبة بركات من قبضتي
الوهيدى « بقوله روحى لى ياهوه » ..

- كانت الأرض دى كلها هيشة ياسيدى الوهيدى - السؤال
من امرأة ابنة عبد الشاطر . مناسبة من تلك التى ينتظرها عم الوهيدى
ايغىء عليها مما رآه بعينه هاتين .. البلد ، اكوام السباخ ، الدور
التي كانت تشفى بالرجال والخير وصفصفت على امرأة ، بيوت عائلة
انسوال ، التى سمع من ابيه انها قامت كالنبات الشيطانى ، أسماء
الصف الطويل من نظار الوقف . لكن الوهيدى - اليوم - لا يصلح
لاسترخاء المصطبة ، ولف السيجارة ، وولمى يابنت عودين حطب فى
فى الطاجن ، وهانى كنكة القهوة وفنجان البيشة ..
التفت الرجل الى امرأة ابنة ، الجهامه المنسطة التى استاثرت
بتفاصيل الوجه .. مطلة . تجاهل السؤال عن تاريخ الأرض . استفسر
عن كمية تقاوى اللدة المتبقية ..

عندما اسندار المحراث بشق الخط الثانى كان عم الوهيدى قد
قرب على الانتهاء من حرث ارض الهيشة وتحويلها الى حقل ، طاويا
دون قصد صحيفة ربما هاتئة ورخية من حياة الهيشة ..
ادار البهائم .. فى وسط الجسر الذى أقامه السيد أبو دراع ،
سلط عم وهيدى سلاح المحراث . شغل بالفرقة . الاظلاف غاصت
فى الأرض لترفع الحد بين أرض عم الوهيدى وساحل السيد
أبو دراع .

من وسط الهيشة التى قدت حقلا ، رفع عبد الشاطر ظهره . كان
يعالج بصبر خلع جذور الغاب . قبل ان ينحنى لمح المحراث . البتر
يتعثر فى شق الحد .
- واد .. واد يافتح الله .. على الطلاق ابوك اشطر رجل فى
البلد .

فتح الله لا يرد . الشغل لم يدملكه . فلاح خفافى . ظهره يكاد
ينكسر نصفين . مع انه يعمل فى أرضهم لكنه ينتظر غطس
الشمس . على انه - فتح الله - حقيقة لاتهره صفة الشطارة ،
فى ابيه بالذات ، ومن أخيه عبد الشاطر على وجه اخص . فى اعماقه
ان اخاه عبد الشاطر - بشعره الاسود الهبابى الخشن يغطى جسمه

ورأسه ووجهه ، بكلماته القليلة المتقطعة - جنس آخر . دون ان يشرح عم الوهيدى فكرته من ضم قطعة الارض التى يزورها السيد أبو دراع ، فهم عبد الشاطر كل شيء . ليس بالتحديد فهم ، أحسن الفكرة ، كالجسم المفقود يحتوى بحجرة دائنة تلفحه كل حرارتها . إضافة ساحل السيد أبو دراع تخلق حقلا مربعا يستهوى الشهوة والفتنة فى روح عم الوهيدى ، كما تستهويها فى روح ابنه عبد الشاطر ، الوهيدى الثانى .

عبد الشاطر لم يتذوق مايمكن ان يسمى معارضة اخيه فتح الله لفعله أبيه . عبد الشاطر لا يدري اتيان مايشكل دفاعا عن فعله أبيه . ارادة أبيه كسقوط المطر ، كموت طفل صغير . اللهم لا اعتراض . - جأتك الغم ياد يافتح الله .

أحسن عبد الشاطر حيود فتح الله .. تضايق . - واد يافتح الله .. اقولك .. والله .. ما انت نافع . أمسك عبد الشاطر بذقنه ، تغطيتها ابر الشعيرات كجلد القنفذة . الخط الثانى شقة عم الوهيدى فى ساحل السيد أبو دراع . حامد لمح السيد ابودراوع مقبلا جريا قاصدا عم الوهيدى . - حوش يا عم عبده !

قبل ان يصل السيد أبو دراع الى عم الوهيدى كان سوط الفرفة قد لف حول رقبته ، وقبل ان يقذف السيد أبو دراع السكينة الطويلة ام حدين والنز يربطها دائما على اللحم لصق فخذه ، كان عبد الشاطر قد احاطه بذراعيه من الخلف . كانت فأس قد هوت على رأسه . وانبثقت نافورة دقيقة من دم احمر . التقت عيون فتح الله وحامد . مذهولين كل بسأل الاخر مرتعبا .

فك عبد الشاطر ذراعيه . سقط السيد أبو دراع . ابن الليل التائب .

اجال أبو دراع فى من حوله من الرجال عينين مغمستين . رآهم . لانسبب انعكاسهم على انساني عينيه ، عليها صورة قديمة تخيلها وانبعثت من داخل مخه كما انبعثت على طرف لسانه أو من مراكز النطق من مخه جملة اعداها قبلا .

- معلش .. حزاة اللى يعيش نعمة بين الديابه .

- ٢ -

فتح الله تنزله الخطوات الحائرة . الليل يقارب أن ينتصف . فى عينيه الظلام رفع الفاصل بين البلد والحقول ، بدت له الجهة

كلها قطعة بلائهاية من السواد ، الدور ذاتها نامت ، الكلاب على السطوح
 وفي الحارات تتناوب النباح .. تترصد القرباء والذئاب وسيدنا
 عزرائيل الذي يبط ويقبض الأرواح . العفاريات انطلقت من عقاليها
 تحت الأرض . القطط والكلاب والأرانب التي تنسل من أركسان
 الحارات ومن فوق الكوام السباح والتنفس الذي يسمع ولا يرى
 مصدره .. حقبقتها في يقين فتح الله عفاريات متخفية . في القاعات
 المائلة . الرجال والنسوان والعيال في سابع نومه . على المصاطب
 المسطوحة ، على قباب الأفران ، على الحصر ، على قش الارز ، المهم
 ان عيونهم أفتقها النوم ، واستسلمت اجسامهم للراحة . خارج
 الدور لا حياة لغير القطط والكلاب والعفاريات والذين تعكرت دماؤهم
 ولم يصاحبوا الفراخ في استسلامها للنوم مع غطسة الشمس .
 .. من خلف جسر المصرف انحدرت عصابة من الرجال بندقية
 موزر معلقة في كتف كل منهم . الجلايب مقروطة عند الركب .
 ينساون لا تحس بهم النسمة نفسها . أترضهم قلب عم السبخاوي .
 تشممهم بصبحى بذيله . تسلقوا السطح . سعل واحد منهم انظارا
 ان ينادى عم السبخاوي . البر امان . اعطى الرجل الإشارة .
 هبط الآخرون . كوز الشاي على قوالج الدرة المشتعلة في الطاجن .
 جوزة نحاسية صفراء سحبت . مع المعسل تحترق تعامير الحشيش
 مذا التحفظ على اولاد الليل . المطاردة - رغم كل امان - دقات
 قلوبهم . عم السبخاوي . حفير الحكومة القديم لم يشه قلق ضيوفه .
 قدم لهم الغرب . فتح الله بن عم الوهيدي . فتحو سيرة السباد
 أبو دراع . حزن بين ان يكون عميقا او مألونا - يرسم على أوجهه
 الرجال - ايمانهم ان القتل قدره . تطاردتهم عقيدة ان من قتل
 قتل .

في انتظارهم الطريل للخاتمة يقتلون ان يقع واحد منهم . الحزن
 ليس من اجله وحده . العقيدة اللعينة تطاردهم ، وتحقق ، عم
 "سبخاوي - هامش من هامش رجال الليل لا يحس عمق كربهم .
 ثم واحد منهم نفسا من الجوزة . طرد الدخان من سنخاريه كالبندقة
 ام روحين . وجه السؤال الى فتح الله .. من قتل أبو دراع .
 فتح الله مأخوذ . بدا له جلساؤه من الرجال صورة خرافية لابي
 زيد الهلالي سلامة ، الوزير سالم . الصور البشرية تملأ ملامحهم ،
 انهم اولاد ليل ، لا ينامون في الغرب مع الفراخ . خال ردوسهم
 حلقه واقفة لاتعرف الانحاء لاحد . يستيقظون مع حلول الظلام .

فى الليل الدنيا - لا الارض - ملكهم . آحاديت ابيه مع السيد ابو دراع
 .. والله يا ابنى ما فى احسن من اللقمة الحلال .. الضحكة اطلقتها
 ابو دراع مجاجلة . ابو دراع يطلق كلماته بلا خوف او لجلجة . حلال
 والا حرام باعم الوهيدى .. لا تؤخذنى ، انت رجل كوالدى ، يعنى
 عيلة السوالم لاه تؤخذة كانت الارض ارض ابوه . انا سمعت وانت
 ادري انهم ناس اغراب عن البلد . كل اهالى ابلد شغالين عندهم .
 جابر افندى ابو سالم ياما ضربنى بالشلوت وانا بعزق فى ارضه
 بالقاس . بعد كده على الحرام باعم الوهيدى بنفسه كان يقوم بولم
 لى السبجارة . باعم الوهيدى ان عشت نعجة تأكلك الدبابة . ياما
 اشغلت فى اراضى اولاد الكلب . ناس تخاف ولا تخشى . عم الوهيدى
 لا يعترض ، اكن الحلال والحرام بينهما التفرقة جليه كالخط الابيض
 والخط الاسود . اسمع باعم الوهيدى .. انا بلا زوجة ، لكن على
 الطلاق ارض اولاد الكلب حرام ، اسمع ، اسمع بارجل يا عجز ..
 رد على .. ارض السوالم تعبوا فيها ، عرفوا فيها ، كل اهالى البلد
 نسوان ورجال وعيال ، شغاله عندهم ، بين الحلال وبين الحرام . الرجل
 العجز يدعك عقب سبجارة فى سمك فتلة دوبارة احترق حتى آخره
 يدعكه بطرف سبائه فى ارضية المنصرة . بلنفت الى انسب ابو دراع .
 يشب من على الارض ، انزلت عباءته الاميرال من على كتفه . لم
 يهشم بلدها . اسمع ياؤد ياسيد ، اسمع : رد على .. يعنى ياسيد
 عدت رجل ، يعنى ياسيد عدت بنزيم ، عدت بتعرف ، رفعت رأسك ،
 رد على ، رد على ياسيد ، عيني فى عينك ، فبهيم بن زينه لما مسكوا
 مراته مع جابر افندى ابوسانم - وفيهم قمام سم بهائم جابر افندى ،
 مين قتل فبهيم بن زينه . رد ، رد على ياسيد ، عيس فى شباك .
 فتح الله ليعرف بالنجديد من الذى قتل السيد ابو دراع . السيد
 ابو دراع كان رجلاً ، لكن من قتل فبهيم بن زينه . التلى المتسائل
 الذى يقاوف بفكر فتح الله بعوزه التعبير عنه . كده انت ابيه تنملىق
 كطرفعة الفرقلة . اذكر فى التحقيق انك ضربت ، - ماد هو الذى
 ضرب . حامد ابن الدار ، امه طرف قرابه ، لايم اركانت قرابه بمينة .
 ولد وترى كابن .. كان فتح الله يحب السيد ابو دراع . ثان بسنشعر
 نوعاً من الفرح . سيصير ان جابر فى الارض . سيمسح منسه
 حكايات اللد . لكن باعم سيد انت خلاص ، قصدى شغل الليل
 .. بيه ؟ لكن باعم سيد من قتل فبهيم بن زينه ، مين قتل فبهيم بن زينه
 انتقاماً لحساب جابر افندى . انت لست لآخى عبد الشاطر ، عبد

الشاطر طبيب ، راجل قبيط ، يحب أباه موت ، بتخلق الشفل في القبط من تحت الأرض ، قبل الفجر ديله في اسنانه الى القبط ، راكب حمار ، صاحب بقرة ، الفأس في يده كالسجارة في يده ياعم سيد ، يحب طين الأرض أكثر من حبه لحريمه ومرة كان ينفدى وأنسل عود برسيم مع اللقمة ، لم يرمه ، ضحك ، ياواد بافتح الله كله خلقه ربنا ، البنى آدمين والبهائم والسريس والبرسيم .. فكرته الشابة أن فتح الله خسران .

هانم - في غندرة - تلقى تحبة الليل على الرجال . الحديث الدائر عن قتل السيد أبو دراع . فتح الله ، صدقوني ، لم يقتل السيد أبو دراع . الذي قتل هو ولد شغال عندهم . حامد . فتح الله يؤذيه من دفاع هانم عنه وصف حامد بالشغال . حقيقة حامد ليس ابن عم الوهبدي ؛ ليس أخا لفتح الله أو عبد الشاطر ، هو يعمل في القبط والبيت ، هو منهم أو ليس منهم مسألة لم تطرح على ذهن فتح الله ، لكنه لم يخطر بباله أن حامد شغال . وقف مع السبخاوي ووقف فتح الله . الصبئية حملها من على رأس هانم . بهدوء وضعت أمام الرجال . على طرف المصطبة جلست هانم تعد الشاي . دعت فتح الله إلى مشاركة الرجال الأكل . عاودت تأكيد اتهام حامد بقتل السيد أبو دراع . عم السبخاوي وقد فتحت له ابنته الطريق اندفع . حامد هو القاتل ، ولد ضائع بلا أصل ، بلا فصل ، ولدته أمه في بيت الحاج وهبدي ، ماتت وهو مقعوص ، فتح الله ابن ناس . عم السبخاوي يسترضي ابنه هانم بمدحه فتح الله . فتح الله لم ترقه الطريقة التي عرض بها الموضوع أمام الرجال . فهو لا يعرف من الذي قتل . حامد سواء كانت فأسه هي التي ضربت أم لا ، واحد من العائلة . صمم على أن يدفع عن حامد الاتهام المؤكد .. الجراة لا تواتيه .

الصمت الذي يلف الجهة كلها امتد الى مصطبة عم السبخاوي داخل القاعة ، شخير عيال عم السبخاوي ، سمع من حجرة مجاورة ، نال الصمت . طلب احدهم من فتح الله أن يستأذنهم . تدخلت هانم من القاعة الحزائية . خففت ماظننه اساءة الى فتح الله . ماعسون اوعهم ، ليس في الأمر سر ، وراءهم سرحة ، عينهم على مواشي واحد فلبان يسرقونها الليلة . نددت بالرجال . فتح الله ليس غريباً عن بيت السبخاوي ، مع أن الضوء ضعيف أو منعدم فقد لمح

فتح الله سنة من أسنان هاتم مغطاة بالذهب البراق تلمع خلف شفيتها .

- ٣ -

فى الصباح اذ انكرت هاتم ان فتح الله بنام فى القاعة الجوانية لم يكن قصدها ان تكذب على الرجل الكبير الذى تهيبه نفسها لان تدور فى فلكه . خوفها من جهامة عم الوهيدى الجميت لسانها . تخلى عنها تفاصحها . فتح الله بالداخل بين البقطة والنوم خمن تقريبا ماحدث ، ثم قرصه صوت رشاد بن جابر افندى يسأل هاتم عن اخواتها . رشاد افندى يشتم اولاد ستين الكلب . يتسائل مستنكرا الا يسرحون الى الفيط دون ان يوقظهم من النوم عشرين مرة ، ويسوقهم من الدار الى الفيط كالحمير .

تدخل هاتم القاعة لا تدري كيف تتحدث الى فتح الله تريد ان تؤدى مايشبه الاعتذار . سى فتح الله عارف . رشاد بن جابر افندى كاهله . ناس لسانهم طويل . ملعونة لقمة العيش التى تذلل الناس . السيد ابو دراع هج من وشهم . هاتم اقترحت على ابيها ان يقطع علاقاته بجابر افندى . وان يعمل اخوتها فى اراضى الفلاحين . كله عمل باليومية . عم السبخاوى اتهم ابنته بنكران الجميل . العمدة ياهاتم خيره راكبنا ، شغل السبخاوى خفرا فى الحكومة ، وانتقاه من بين الخفراء ، كان تابعه كظله . هاتم تسقط هذا الجزء من دفاع ابيها من جابر افندى . بحس فتح الله ان فتاته محاصرة . لا يهم ، المهم انت ياهاتم ، بعدك لا شيء بهم ، امسك بيدها . تفحص وجهها . فيه من ابيها سمرته ، من امها صفرة باهتة . احس به لامعا نظيفا . تطل من اعلاه عينان . اطال فتح الله التحديق . النور الساقط من فتحة السلم على صحن الدار منعكس على وجه هاتم . العنيسان سوداوان . الحاجب رفيع . الرموش سوداء طويلة . الرموش تتلاقى وتنفرج . الكحل الاسود كان قد صبغها فى الصباح الباكر قبل ان يستيقظ . سألها هل تعرف ان عينيها حلوتان . هاتم بين ان تقف عند الحديث عن حلاوة عينيها ، تخرج من الحفرة التى اوقعها فيها ابوها واخوتها وامها ، وبين ان تطلب منه ان يمر سريعا . عينيها ان تعرف ان فذاته مؤدبة . البنت يامى فتح الله باخلاقتها . فتح الله يؤمن على الحكمة التى اقلت بها هاتم . امسك بيدها . ثم سألها عينيها . سأل هل حقا تحبه . هاتم تعترض ان يرحل بها فتدرك بعد الزواج الى بلاد بعيدة . رجل الليل بلا بيت . لا يملك نفسه

يخرج للسرحة لا يعرف منى يعود . وقد لا يرجع ابدا . هائم ..
 ابن المولى رجل .. رحم الله سيد أبو دراع .. لم يعجبه حال عائلة
 اسمه الم مع أهالي البلد . هائم تعود يشدها خوقها . أنت فين ياسى
 فتح الله وأنا فين . هو يكره منها هذه اللفة او هذه الكلمات . هي
 تلف بالكلمات تخفى بها رقصها متعلقة بالفنى والفقر . الناس اولاد
 تسعة . ضفط على يدها . ثاوهت ، سحببت ذراعها . خنقه صونها
 الناعم المنعم الساخن . كلسعة ضوء القمر . ضفط يدها . ركبها
 غضب مفاجيء . نشجت . انفجرت باكية . ليست واحدة من اباهن
 فقيرة لكنها تعافظ على شرفها . الحلال احسن . اربك . تذكر
 اللحظة التى فوجيء فيها برأس السيد أبو دراع مدشدشة بفعل
 فأس . فأسه هو . فأسه أم فأس حامد .. بتحسسه الحابي ، هائم على
 حق . المرأة على غير زوجها حرام ، لم لم يتزوج السيد أبو دراع ..
 حرام أم حلال - ماذا كان يقول السيد فى هذه المسألة . بارتباك
 تقدم بعنار أثير . هو يحبها . لا يفرق بين نظرة تمسح وجهها وصدرها
 وتهديده . بين دقات صدره هو كالتلبلل اذ يسمع صررتها وبين يده
 تضغط يدها . خالتى نرجس فتحت باب الدار . عقب الباب المرتكز
 على قطعة صخر خلف فوفها . يزيق . مسحت هائم دموعها . لم
 تنفجر الى فصح الله لكنها كانت تراه . حدثته بصوت رائق ، صوت
 لا اثر فيه لدواع أو تشيح أو وعظ أو ارشاد . عليه ألا يزعل . هي
 الاخرى . صوت خفيض - تحبه .

الام حيث فتح الله بحقاوة . سيدة تربت فى بيوت الثراء . بيت
 جابر افندى . سرها احساسها بقيمة ان يكون للانسان ارض يملكها
 وجاموسة وبقرة وعلى سطح بيته كوم الذرة . شرفتنا ياسى فتح الله
 يا بنى . نورك رجل ولا كل الرجال . تبحث عن كلمات ترفع بها الحاج
 وهديى عن حضرة العمدة . قدمت ارقفة ساخنة لفظورد . الى جانبه
 على المصفاة حسنت هائم تنفخ فى القوالح تسعلها فى الطاجن . تعد
 الشاي . فتح الله لا يحب ان يشرب كرسى معسل على الصبح .
 ليس كيبفا ملقوعا . أين هو من أبيها السبخاوى ، الكيف الذى
 ساحب الحوزة قبل ان تولد هائم وقبل ان يتزوج الام نرجس .
 يمسك القوالح الملتببة بين سباته وابهامه . يرضها على المعسل .
 يفسطها بطن ابهامه . احسنت هائم بوضوح باحتقار لفتح الله .
 استصغرت . ليس رجلا . اولاد اليسوريين تنقصهم الرجولة دائما
 احسنت بعمق نقيصة لا تفتخر فى اخلاق فتح الله . الا يستفتح اليوم

بكرسي معسل . فتح الله لا تذهب ظنونه ولا بصدق - لو سمع -
ان تكون هذه معتقدات وليفته . هذه بالذات يعدها مزيه تقربه من
الناس الذين يكره تعالىهم ، عائلة السوالم ، الذين لا يشربون الخبيش
في الليل .

حوشنى باسى فتح الله . استغفانة من السطح لواحد من اخوات
هاتم . حاولت ان تمنع فتح الله من الصعود الى السطح . صعد .
اخران وليفته الذكور الثلاثة رؤوسهم مكشوفة في الشمس ، تبعها
فتلات من الشعر . الجلدة حمراء ، بيضاء مشقوقة ، ينز منها
الدم . ليس دما احمر ساخنا كالذي أتبع من راس السيد ابودراع .
دم اصفر ، ابيض ، دم دهني . امرأة غريبة . ليست من البلد
تجلس ناهضة على قزحها ، تشد بقوة قطعة رقيقة من جوال سجاد
كهاوى . طبقة القطران الاسود الرقيقة التي يسمع بها الجوال
من الداخل ملتصقة بجلدة الراس المتقيحة الجرداء . المرأة تشد
قطعة الخيش بقوة . قطعة الخيش الرقيقة تتمزق مرة بين يدي المرأة .
مرة يطلق الولد صرخة استغفانة . شريحة من الجلد المعبود تتمزق
ملتصقة بالخيش . خالتي نرجس ممسكة بكل قوتها . هاتم ركبها
دفريت . شتمت لها . لعنت الاولاد واباه . لعنت اليوم الاسود
الذي ولدت فيه في هذا البيت . سحبت فتح الله من يده . منى
سيتوب الله عليها من هذه الدار النكد . رصت كرسي معسل . مدت
غاية الجوزة الى فتح الله . لقمها وشد نفسا عميقا كما لم يفعل من
قبل . يقاوم رغبة في التقيؤ . احس الحرج مرسمًا على وجهه
هاتم . حاول ان يخفف عنها . احس بها تريد ان تبكي او ان فتح الله
امسكها من يدها لصحبته الى داخل القاعة الجوانية . تعرف ان البلد
كلها تصف اخواتها بالقرع . لحظة تعيسة من حياتها حقا ان تحضر
المدافنة لتعالج اخواتها وفتح الله بالدار . ام تصل الى آن العلام
بواقعة ما يختلف عن معاشتها ، باحساسها ان علم فتح الله اقراغ
اخواتها شيء ورؤيته للقراع معروضا تحت اشعة الشمس شيء آخر ،
لحظة ضعف ساحقة تعيشها هاتم . تريد ان تفعل أي شيء تشغل في
البيت حريقا . تطرد فتح الله . احست تحوه برغبة في الا تراه
.. منذ عرفته وهي تسير على جبل .. تخفى منه حياة ابيها وامها
واخواتها . من اجل ماذا . هو لا يستحق . ولد مفعوص ، ولا خير
فيه ، ويسرق من ابيه . من لا خير فيه لاهله لا خير فيه للناس .
انها تكرهه . تكرهه . ملعون هذا القاتل المجرم ، قاتل كابيه الوهدى

الملعون قتل صاحبه من أجل سمكة . اسمع يافتح الله . . السبخاوى
 يقوم باخفاء المواشى المسروقة . عليك أن تعرف . صاحب عملبه
 الافضاء او التفضفض رغبة بارزة أن تتعري هانم امام فتح الله .
 فتح الله تشغله شفقة عميقة نحو هانم . لم يلتفت . توازت داخل
 هانم عملية الافضاء مع رغبة فى أن تخنق فتح الله ، تخنقه بيدها ،
 بيديها تضغط رقبتة ، ولتصق به ، تحضنه أمسكت بيد فتح الله .
 ضغطت دون أن تحس . ! كانت تبحث عن كلمات مطوطة لصياغة
 الخبر . مازالت حالة النقيض تشغله . رغم ذلك شدته جدية قاسية
 تشكل ملامح هانم وتهزها . انفراج واضح بين شفقتها . وفوجيء
 تماما . هانم تدس غابة الجوزة وتطبق عليها فمها . نفثت من منخاريها
 سهمين حاسمين من الدخان الكثيف . تموج دخان متسكما بين فمها
 والهواء الخارجى . عندما وصلت هانم الى ان البهائم المسروقة يخفيها
 ابيها فى دوار جابر افندى ابو سالم ، حضرة العمدة ، كانت قد
 انتهت من قذف الخبر كانت قد تخلصت من توتر عضلى شد داخلها ،
 لم تدر هى الاخرى سببه ، بعده احست بالضوء بفجر المصطبة .
 بارتياح ، حب الهى لفتح الله ، للجوزة ، لابيها ، لضعفه ، لامها ،
 لاختوها القرع ، ليس ذنبهم ان ربنا خلقهم قرعا ، حينئذ نحو دارهم
 بطبقة الهباب فى سقفتها ، القاعات ، المصطبة ، آلباب الخشبي ،
 السلم ، جذع النخلة المنجور ، البلاص القاعد بجوار المصطبة ،
 القرن ، الكانون . التفتت الى فتح الله . ولد طيب ، برىء ، لا يجرو
 ان يذبح فرخة ، هجر اباه ، دارهم ، يتحدث عن امه كطفل ، لم
 يرها ، ماتت قبلا ، يحب خالته ، ماذا تستطيع ان تقدم له ، كيف
 تفديه ، عليه أن يعود الى ابيه ، الى دارهم ، لا يجب أن يحرم من
 خير ابيه ، لا يجب ان تكون هى سببا فى شقائه ، عليها ان تمنعه
 - بعد ذلك - من سرقة الحبوب من سطح دارهم عليها - بالذات -
 ان تفصل بينه وبين رجال الليل الاهبل . . يريد ان يكون منهم انهم
 مساكين وحياتهم ليل ليس لهم بيوت يملؤها أخير كبيت فتح الله .
 سألها فتح الله لم هى سارحة . افاقت . فتح الله . . يجبك . .
 صدقنى . . قلبى ابيض . . مايشيلشى من حد . حتى عيلة جابر
 افندى . . ياسلام يافتح الله . . ياسلام ، قاومت رغبة مخدرة للناس
 المت بجسدها كله . احس فتح الله كريبا يملؤه . لها ان تحب كل
 الناس كل شئ الا عيلة جابر افندى ، الا عيلة السوالم . هم ان يسألها

بدأت له عليه بأسرار الليل . هانم . . من قتل فهم بن زينه كيف
لا تذكرينه فهم الذى ألقى السم لمواشى العمدة وهى فى الدوار .

- ٤ -

بعد صلاة العشاء على المصطبة الممتدة امام دكان الشيخ سعيد قعده
البلاد الحارة ، يتخاطفون سيجارة ، يرصون كرسى معسل ، يتراهنون على
كسر اعواد القصب بسيف كفاليد ، يتراهنون على اكل قطع الصابون
وشرب الجاز وسبب خفى آخر ، التعليق على نسوان الحارة عندما
تمر عليهم فى الظلام . بعد الطبخ والاكل وتنويم العيال تتنادى جارات
الحارة وكل جماعة قافلة صغيرة تأخذ طريقها مارة بمصطبة دكان
الشيخ سعيد الى التلول تفك تكة السروال والجلسات متقاربة - الاسرار -
هى الأخرى - حمل ثقيل احتجزنها يوما بكامله التخفف حالتهم ،
تنتهى الجماعات بعد أن يتخففن . عند العودة ليس شرطاً ان تكون
كل جماعة هى بذاتها التى خرجت ، يعاد تشكيل الجماعات ، التلول
حول البلد ملك للحريم فى الليل .

فتح الله يداور ابن خالته . يريد ان يطمئن على عودة هانم من
التل . كل عريس يرقب عروسه من رحلتها الى تلول السباخ . لم
تعد هانم . ان خالة فتح الله تشده ، ولد عفريت هو الذى كشف
فتح الله . قب يافتح الله شوف خالتك . الغائب حجته معه . تململها
المرأة ، لو ان لها الفرض ، وهى نائمة الى جانب زوجها .

- ازيك يا فتح الله . لمبة الجاز معلقة على مسمار بالحائط . على
المصطبة تبعد الاولاد . الخالة قبلته من خده اليمين مرة ومن الخد
الأخر مرة . احتضنته . ضمته الى صدرها . امرأة فارعة ، عجوز
ماسكة حيلها .

ازيك يا حبة عيني . . عابته . الا تراه الخالة الا بمرسالى . لفت
من بعيد . سألتها عما اشتغله فى الفيط . فتح الله لم يشتغل .
تأملت لفها . استفسرت ، الصحة متوعةكة ياخالة . وهى تعلم انه
يتهرب . تنزعج حقيقة . سلامتك بافتح الله ، الف سلامة ، خالتك
تتحمل عنك . نسيت انها كانت تدأوره لتصل الى خلافه مع اهله .
تستقصى نوع تعب .

الف بعد الشر عنك . تعجب يافتح الله وامك لا تعرف . ضمته الى
صدرها . طبطبت على كتفه . من يدري ربما لم يتناول عشاءه .
قدمت من الموجد . صحن الجبنة القديمة مدهوسة فى المش ، اللفت
وأعواد السريس . فتح الله تغير . الخالة رآته قد امتصه الهوال .

ابدا ياخاله والله انا حصان . آه يافتح الله ، يا حبة عين امك ،
هل تنكر ، عيان وتنكر ، لست اقل من امك . فتح الله لم يمسك
نفسه . لو ان الناس كخالته . بكى . قبلته على خدبه فى طرقة .
ما عاش من انكى فتح الله . لا تعرف كم أعزك يا فتح الله . سمع
اسم امه . نطقته خالته وكأنها تبسم ، كأنها تصلى على النبى .
لا يجب ان يبكى فتح الله وخالته على ظهر الارض .

فتح الله لا يود أن يعود الى دارهم ، لا يعرف السبب بعد يوم
حكاية السيد ابر دراع . . كان ولد شهم ياخاله . . فتح الله لو كان
يدري ما سيحدث لمنع ، هو نفسه ، اباه عن ضم قطعة ارض السيد
ابو دراع الى ارضهم .

كان فتح الله يقيم جسرا . انتبه على زعقة حامد . ابو دراع كان
مقبلا جريا . لتعلم فتح الله . تمنى لو انه اعترف لخالته انه هو
الذى ضرب . ليلتها حاول ان ينام . كلف فى رأسه المشاهد . صورة
ابو دراع مرة جالس مع ابيه يرد على عم الوهيدى بلا خوف ، فى
شهامة . على الحرام باعم الوهيدى انا والبندقية فى يدى ما تطرف
عينى لجابر ابو سالم ، ولا لعيلة السوالم كلها ، عيلة فى عينى قش ،
لا الارض ولا الهبصة تهز طرف عينى .

فتح الله لم يستطع ان يوفق بين ابو دراع الشهم وبين ابو دراع
ملقى على الارض ، على وجهه فرع ، ذلة ، انكسار ، فى لحظة لم
يكن هو السيد ابو دراع ، كيف . ترسم قطعة الارض الصغيرة .
هل كان عم الوهيدى يعلم . الاكيد ان لا شيء كان يمنعه من ضم
المساحل . وفيهم بن زينة . ليلتها طرق فتح الله حجرة عبد الشاطر ،
كان نائما استيقظ ، انت يا فتح الله مداع ، ولد خسران . لو ان
فتح الله تعب من الشغل فى الفيظ ، لو اتاه النوم وهو عائد على ظهر
الحمار ! عبد الشاطر يخلق فى الفيظ الشغل من تحت الارض .
نصيحة عبد الشاطر ان يعود فتح الله لينام .
كان الشارع ساكنا ، مظلم . لم تكن القرية موحشة هكذا ابدا .
الخالة تقاطع . نهايته ياخالتي .

لم يكن فى الحارة دار واحدة صاحبة غير دار السبخاوى . شربت
كرسى ، مصلى ، اثنين . لم يكن لفتح الله رقبة ان يعود الى دارهم .
غلبه النعاس . اسند رأسه الى الحائط . استيقظ . كان الليل
ساكنا . كان رجال الجوزة انصرفوا .
السبخاوى ممدد . الى جواره نام فتح الله . شد الكيس . توقف

فتح الله . أحسن نخجل . ففى الصباح الضاحى استيقظ . لم يكن بالدار سوى هانم . قدمت له كوبا من الشاي . سألته . حكى لها . استمعت إليه . حدثته . أنت ياسى فتح الله وحياة سيدنا النبى رجل بنى آدم . الإعمار بيد الله . أبو دراع كان سيموت سواء ضربه حامد أو لم يضربه . المينة مكتوبة على جبينه . كلنا سنموت . خفف عن نفسك ياسى فتح الله .

فتح الله سمع أناكيد قاطعا انه لم يضرب أبو دراع . فتح الله قلبه خفيف . حامد هو الذى ضرب . فتح الله طرح ماحدث على هانم . البراءة منها سمعها بالذنه . يتمنى فتح الله أن يكون حتم هانم حقيقة .

الخالة لم تستمع الى تفاصيل الجلسات الطويلة . الخالة لم تتر علة بين موت السيد أبو دراع والظوفة التى ألت بابن أختها . مصممة على أن تعيده الى دار أبيه .

السبخاوى يافتح الله يا ابنى رجل من قعر مؤاخذة ، اسم الله على قيمة ابن أختى ، مش راجل ، لم يكن خفيرا فى خدره الجكرية ، سحاب نسوان لجابر افندى ، جابر افندى رجل ذيله نجس . فتح الله يجابه أمه أو خالته . المهم هى ، هانم نفسها .

الخالة لايعوزها الرد ، اللهم احفظ ولايانا ، يا بنى لسان الناس ، لسان الناس لا يبرىء نرجس زوجة السبخاوى ، هانم تربت فى ماعون شين ، كل واحد حسب ماعونه ، والبنت يافتح الله يا ابنى لامها ، فتح الله لم يقتنع . هو سمع ، لكن ياخالة هل هذا يعنى أن هانم معيوبة . يافتح الله . من قالوا عنها قبحه هى قبحه ، الخالة لا تعرف ماذا يعجب ابنها فى هؤلاء الناس . عيلة معيوبة من طاطا لسلاو عليكو . الخالة تستعرض ، السبخاوى ، نرجس ، حتى يا بنى عيالهم فرع .

فتح الله يقتنع تماما حتى نخاع عظمه بكلمات خالته . يضيف أن هذا شىء وهانم شىء ، ياخالة سيبى حكاية الزواج لن اتزوج . ترجح الخالة أن ابنها ينامور . حاولت أن تصل الى داخله . أحسنت أنه يكاد يفلت منها متخلياً عن صدقه فى حديثه معها . وبالتحديد مخفياً نباته عنها . يحكمها عاملان : حبها الشديد لابن أختها ، اتفاقها مع عم الوهيدى على أن تعيد الولد الشارد . عم الوهيدى هدد بضرب الولد بالنار . هدد بقتله . الخالة هددت أن الولد قد يفعلها ويسوح فى بلاد الله . الوهيدى وافق على زواج ابنه من هانم على

ان يقطع علاقته بأهل البنت . وصية عم وهيدى للخاله الا تمسدهم
للولد الحل الذي وصلا اليه الا بعد ان تكون قد غلبت معه . اذا احسنت
الخالة انه قد آن لحظة القاء الورقة الاخيرة . صارحت فنيح الله
بموافقة ابيه شريطة ان يقطع علاقته بالسبخاوى وعائلته .

- ٥ -

بتوجس وخوف - ممزوجين معا - بالرعب أمسكت الست جواهر
بالمقبض النحاسي الاصفر ، ادارته ، واربت ضلفة الباب ، انسدت التي
الداخل . في وسط الحجرة تنتصب اعمدة السرير ، نيكل بيضاء
مربعة ، تنزل منها الناموسية ، كالمحمل ، الضوء الخفيف المنسلل من
ستائر النوافذ يعكسه طلاء الجدران الزينى ، طربوش جابر افندى ،
الجنيه ، الكاكولة ، الجزمة ام استك الاجلسيه ، وفردتا الجورب
فوق الرخام على الكومودينو تتدلى منهما حمالة أستك حرير . رقت
الناموسية بحذر بالغ . صبح النوم يا حاضرة العمدة . لا تنتظر ردا .
لم يعترض على ان تزور اخواتها . يسكنون في نفس التريبعة التي
اقامت عليها عائلة السوالم منازلهم وسراياتهم غرب البلد . على
الزوجة ان تكلف واحدة من الخاديمات اعداد دورة المياه . ابريق ماء
ساخن في المرحاض ، آخر لاغتسال حاضرة العمدة .

في منزل المرحوم ابيها ، بين اخوتها انفجرت الست جواهر باكية .
اوقات من اللحم الابيض اهنزت . لن تتحمل اكثر مما تحملت . رجل
زناوى ، عياره مفلوت ، اقسمت الست جواهر بابنها رشاد ، كانت
تفضل الزواج من بائع فجل ، الاخوة يعلمون الا حيلة لهم في الامر ،
هم انفسهم يفعلون مايفعله جابر افندى ، لا مفر لهم من مهاودة اختهم
الكبيرة ، عليهم ان يستعدوا الليلة لضبط جابر افندى مع واحدة
من نسوان الفلاحين اولاد الكلب في الحجرة الملحقة باسطبل الخيل .
لم يبق الا ان ينام مفلوت العيار مع قبحاته في حجرة النوم . استمد
الاخوة ، ابناء عمومة وخؤولة جابر افندى .

السلام عليكم ورحمة الله ، السلام عليكم ورحمة الله .

تصافح المصلون . انتهت صلاة العشاء . عيال الحارة واولادها على
مصطبة الشيخ سعيد . نسوان الحارة في طريقهن الى التلول .
بعد الذي منه يدققن في اختيار الطوبة للمسح ، الخشبية من ان
تكون الطوبة افراز آدمى جاف ، الاولاد على المصطبة لا يكونون عن
الامليق على مواكب النسوة . حج مبرور . كل سنة وانتم طيبين .
لا يمنع ان تكون ام الواد بين الجماعة . بصفعه ولد آخر على قفاه .

يا ابن الكلب وسر المصحف الشريف أمك كانت فى الوسط .

الدسيمة طرقت منزل المرحوم . واحد من خفراء حضرة العمدة . حماس شديد ألم بالست جواهر مع الاخوة تقدمهم كلوب ، دون ان يشعروا كانت وراءهم زفة ، الاخوة اولادهم ، باب الحجره الملحقه باسطبل الخيول العربية الاصيله ، الكتوف ضفطت ، انكسر الباب ، اندفع الرجال تتقدمهم الست جواهر ، باقى المولد وراءهم ، فى ركن الحجره كانت تقف مرعوبة ، مرتعشة ، تشلها هبات برد داخل مسام جلدها ، دست جلبابها من راسها ، شدته بصعوبة ، نسيت المروال - كانعلم المهزوم - معلقا على مسمار فى الحائط .

خيبة الامل حطت على الست جواهر . احس اخوتها بالارتياح . مواجهة العمدة لم تكن شيئا هينا . لحظة مرت او لم تمر . الاخوة وراءهم قعدت الحشيش . الست جواهر لحقتها ممتدة لم تنته من قبل ان تلد رشاد واخوته . من بعد ليلة زفافها وهى ترقب تسلل حضرة العمدة مع واحدة من الخادما . فى محاولة للافلات من اللحظة تقدمت الست جواهر قويه بدنية فيها عافيه تكفى لشد نورج او محراث تتعثر فيه بقرتان من بقر الفلاحين الاعجف ، رفعت يدها الى السماء ورن الكف على وجه هاتم . هاتم تلف بها أرجوحة لفات سريعة دائرية متلاحقة حتى لكان الارجوحة ثابتة . هاتم فاجرة كامها نرجس ، فاسدة كابها السبخاوى السحاب . كان الكف اشارة البدء . على الاخوة ان يجاملوا اختهم ، بالابدى ، بالارجل ، بالعصى . يسقط الضرب على هاتم ، متكورة ، منكشمة ، مستسلمة ، الست جواهر لا تدري كيف تفرغ غيظها ، خيبة املها فى انها لم تضبط حضرة العمدة . الضرب لا يكفى . همت ان تهجم على البنت وتنهش فى بطنها بأسنانها وبأظافرها فى الاماكن الحساسة . احتارت حتى الموت ماذا تفعل . كل تصرف مباح لها . حرة تفعل بالفرسة ماتريد . لحظة نادرة فى حياتها ، انار عقلها على غير توقع منها . التفتت الى الاولاد والعيال . صرخت فى وحشية : ولاد ، ولاد ، جرسوها ، بنت السحاب ، قحبة كامها . وفى هدوء ، كالبواء النقى ، كان على رأسك طاقيه الاخفاء انسل رشاد افندى ابن جابر افندى لا يصدق ان هذه هى أمه . فى قرارة نفسه انها على حق وان هاتم القحبة بنت القحبة تستحق اكثر مما حصل لها .

بنفسه رفض ان يقابل هانم حين طلبت لقاءه بعد انعساءه على سطحهم . فى المرة الثالثة ، حمل المرسال .. هانم لن تحدثك ، ستعيد اليك اشاءك ، المناديل ، زجاجات العطر ، الفستان ، حتى الفلوس ستسدها ، فتح الله نفسه يحس أو لا يحس انه منقسم . دماغه يملؤه طنين ، طنين تصنعه كل احاديث المصاطب ، تملأ الحارات احاديث جسور الترع ، مدارات السواقي ، قعدات الحشيش ، قعدات المعسل والنسوان ، النسوان الجالسات على قزحهن فى الظلام على ثلول دابر الناحية ، ويتحسس السباح بحذر بحثا عن طوبة ناشفة . هانم ضبطوها مع رشاد افندى ، مع جابر افندى ، مع فتح الله ، مع واحد من زوار ابيها فى الليل ، مع .. مع .. مع .. كامها .. كآبيها .. هل .. هل .. هل .. البهارسيا ، تقط الدم الاحمر ملء كف بعد كل بولة ، توحد كل ابناء البلد ، فضيحة هانم ملء كف دم وحدها ووحدهم هى الاخرى . لا يستطيع فتح الله ان يضم اصبعه عليها ليقطعها ويستريح ، جزء منه وليس منه ، جزء من صدره ، اصم ، ابكم ، اعمى ، لا تصل اليه احاديث المصاطب والجسور والتلول والقعدات . جزء داخله يعذبه ، يشد عينيه طوال الليل ، لا تغمضان ، يصاحب خطواته ، يخنق صدره ، جزء فيه هذا ال « مانم » وحدها ، زلطة تشعوط النار كل ماحولها ، هى صامدة ، زلطة يسكنها جنى يتحكم فى قسماط وجهه ، فى مزاجه ، لا يتلقى اوامره منه .

قبل ان يستجيب لالاحاح هانم ، ليقابلها فى حجرة صديقة لهما مر على خالته ، قبلته ، طبطبت عليه ، ازيك يا ضنايا ، تعالى ، تعالى ، يا فتح الله ، اقعدي جوار خالتك ، شبه المرحومة امك تماما ، سبحان الخالق ، يا حبة عيني ، الام تشبه من ياخاله ، اكانت شبيهك ، انزعجت الخال . خالتك يا حبة عيني ايش جانبها لامك ، فرق البحر من الترفة . يا خالتي البطن واحدة ، انت وامى من بطن واحدة . آه يا حبة عيني ، البطن تجيب الزين والشين ، وابو فصادة والاقرع وراكب الخبل وخايب زمانه . قهقه فتح الله . اقلت من قبضة الجنى للعين . الجنى الذى يلبد داخله ولا يتلقى اوامره منه . جنى حضور

هانم . آه ياخاله نو يسكن قتح الله فى حمامك حتى يوم القيامة .
 لحظات الصفو المخاض معك وحده . صفوك ياخاله لا بأخذ بانفاسي ،
 لا يخنقنى ، معها هي الاخرى تصفو النفس ، صفو منقبض خائف
 دائما ، عرض على الخالة ، هانم دعته للقائها ، ترثت الخالة ، ابن
 اختها ، حبة عينيه لم ير وليفته منذ الليلة الملعونة ، فى ليلة واحدة ،
 أمسك بفتاته زوجة له .. اقلنت منه الى يوم القيامة ، هو لا يقول
 انى الابد ، بعدت عنه فى ساعتها . الغد يخيفه ، فى يومه الجباري
 هي ليست له . الغد فى يد ربنا الذى فى السماء . حين ياتي الغد
 وبصير يوما حاريا هي ليست له لا يريد او لا يحب او لا يجزى على ان
 يصدر حكمه على الغد . يكفى انها ليست له فى يومه الاينى . انها
 - والعلم عند الله - قد تكون له فى غده . اذ بتدحرج غده ليصير
 يومه . عندئذ سيصدر حكمه قاطعا . هانم ليست له . قابلها ياابنى ،
 شوفها ، اسمع منها ، العيش والملح له حق ، اللهم استر ولايانا ،
 وقوت على يافتح الله .

اللمبة الجاز معلقة على المسمار المدقوق فى حائط
 الطين ، على النخسيرة جلست هانم وصديقتها . كان سلاما
 انتفض له الجنى داخل قتح الله . انها هي هانم . الصوت مرتعش
 محشرج مبجوح خافت . ازيك ياهانم . منطوية متكورة . مثقبرة .
 حزينة ازيك ياسى فتح الله .. الصمت لا يعرف الخفوت او الانطواء
 حظ .. شريط اللمبة يقطع . استاذنت الصديقة لتعد كوب الشاي ،
 بقى الصمت . سطع نور اللمبة الباهت الخجول ، بقه فى حجم حبة
 عدس بقشرتها تجرى كالمدمورة على الحائط ، شجيرات العماقول
 الشوكية مسمرة على الجدران لقتل البق النهم . كان نفسانا على
 مصطبة السبخاوى . تقدمت اليه .. سى فتح الله . وأرب عينيه ،
 كان عم السبخاوى قد استيقظ وتركه نائما . سى فتح الله .. صح
 النوم دلقت على يديه من ابريق الفخار الاسمر ، غسل وجهه
 بصاونة معطرة قدمتها اليه ، على كفها كوب الشاي ، تأمل جبهتها ،
 نور اللمبة الباهت الخجول يسطع على جبهة هانم . ازيك ياهانم .
 اكتشف ان يده ممسكة بيدها . فزع . كان بين اصابعه نعبانا .
 سحب يده على عجل سحبها وهو لايدري حقيقة مشاعره . من دماغه
 كان ينطلق حديثه قاسيا ينهى كل شيء . كل شيء يجب ان ينتهى .
 السيرة لبانه بين اقواء القرية . قسمة ونصيب .. من المنطقة المجهولة

هانم هي هي ، هانم الى جواره بنفسها بلا زيادة ولا نقصان . عرضت هانم بؤجة بها اشياء فتح الله ، ردها . هو ليس خيسا . هانم آمنت ، انت صحيح لست خيسا وانت ابن ناس . ماذا يصنع فتح الله في الكلمات . هو يقصد انه ليس خيسا ليسترد اشياء خرجت من ذمته ، اما ان تخرج الكلمة من فمه لتكون حبل اتهام تسيء تخنق فهذا مالم يرده . كل شيء يتمرد على ارادة فتح الله حتى كلماته . انفجرت هانم باكية ، هو ابن ناس اما .. احس بحزن حقيقي . حزن من المنطقة المجهولة ومن دماغه معا . مثلما كانت خاتنه تقبله على جبهته قبلها على جبهتها ، بشكل خفي ، تقبلها على الجبهة عمل مختلف تماما عما فعله رشاد . لهذا فتح الله يبيع نفسه اثيانه . هو يتفرد بالجبهة . هانم .. عليك ان تدعى كن شيء للغد . في الغد يجد فتح الله راحته . وعدها ان يزورهم في البيت . كانت قد نقلت اليه خبر مرض امها .

- ٧ -

يبدأ بصداق في الراس . همود في الركبتين . تهدل في الجسد كله . اسهال . قيء . بعد ثلاثة ايام ماتت الام . ماتت نرجس . لم يشترك فتح الله في السير في الجنازة ..

في نفس اليوم ماتت امرأتان . مات ثلاثة رجال . في اليوم الثالث استقبلت أفواه المقابر خمسة رجال . دفنوا - ايضا - على الساكت . امرأتان . عدد من الاطفال . ببطء تدريجي ثابت . تسلل الخوف . ملأ البلد كلها . خلت المصاطب ، قعدات المعسل ، حتى المساجد . تجمعات مختلصة مرعوبة تنهامس ، تتناقل آخر انباء المرض ، اى الموت . من اصيب بصداق فيه الشك والامل . الاسهال يقطع الشك باليقين . البحث عن الليمون شغل الناس . اشاعة ان البلع هو السبب . المرض الجديد معد يا اولاد . ثلاثة ايام ثم الموت . لا مريض واحد شفى ، البلد تدفن كل يوم . كل يوم موت ودفن وجنازات صامتة . الدفن لا يتوقف في كل بيت مريض او ميت او مرعوب . قش الرز ملأ الشوارع والمصاطب . على قش الارز يجلس المشيعون . المدرسة الالزامية ، ومكتب المحافظة على القرآن الكريم

انلقا . سوق الاثنين ماعاد يقام . كل واحد انطوى على خوف عميق .
خوف يخاف أن يهمس به لنفسه . لا أحد ابداً هاجمه المرض وشفى
البلد انقسمت قسمة غريبة كما لم يحدث ابداً او كما هو حادث
دائماً . عيلة السوالم اقامت معسكرا وقائيا حول سراياتهم ومنازلهم
احتمت داخل معسكرها . فكروا ان يقيموا سورا بين بيوتهم وباقي
بيوت الفلاحين ، اى غريب عن العائلة محظور عليه الاقتراب من
بيوتهم . اهالى البلد عليهم وحدهم ينصب غضب الله . العسائلة
الغريبة الوافدة على البلد بيوتهما بمنزلة . الشغالة الذين يخدمونهم
فى الفيظ والببيت حجزوهم داخل المعسكر . منعوهم من النزول الى
ذويهم . المسجد المشترك قاطعوه . جابر افندى احتجز السبخاوى
وكليه سبع الليل . مقابر البلد مفتوحة للاهالى وحدهم . المقابر
ضاعت بالوتى من اهالى البلد . عبد الشاطر خيل اليه ان برأسه
صداعا . حمل فاسه الى الفيظ . هو يعالج الامراض بالشغل .
اربعون عاما ما اعترف بطبيب او مستشفى . الاعمار بيد الله . هو
مشغول دائما فكيف يمرض . المرض رفاهية العاطلين اهل المصاطب .
هو دائما وراءه شغل فى الفيظ . الارض بااولاد دائما تحتاج الى
ايدى اللى تلعب فيها . ترفع الحجر من جانب عود القطن ، تحيطه
بالتراب الناعم . الزرعة فى الفيظ كالطبخة لو تركت على السكاوير
شاطت . عبد الشاطر عاد بفأسه . لم يصدق انه اصيب باسهال .
علامة لا تخطئ . عم الوهيدى الحريص الواعى الرزين جن . كل
شيء يارب الا عبد الشاطر . لم ينبج سواه . هو كل شيء . من
اجله كل شيء . ابيع البهائم بهيمة بهيمة ، الارض التى جمعتها شبرا
شبرا . ابيعها ، اعود كما بدأت لا يهمنى ، يبقى عبد الشاطر ،
سنخلق ارضا جديدة من تحت الارض ، سنملا الدنيا زرعا وقلعا
وخيرا . عبد الشاطر ، عبد الشاطر ، حمل الرجال عبد الشاطر نزلوا
به الى القصر العميق . انهال التراب . عائلة السوالم بحالها كان
المرض لم يعرف بيوتهم . لا رجل لا امرأة لا طفل . الخالة هى التى
افضت الى فتح الله ، يابنى البنت هانم سمعت ياولداه انها تعبانة .
الحيرة عاودت فتح الله . امها ماتت ، العمدة حجز اخواتها .
فتح الله حملته خطواته الى دار عم السبخاوى . تخطى العتبة فى
خوف . دق صدره خبطات متلاحقة . دوار خفيف طاف بدماعه ولم

يلتفت إليه ، قابل عينيه صمت مقبض . كل شيء يراه لأول مرة .
 باب الدار . شرائع غليظة من أفرع الشجر . تراب قديم يفترش كل
 ما أمامه . الهباب طبقة سميكة هشة متراكمة على السقف . الدار ،
 برج حمام مهجور ، طافت بذهنه كلمات موال . حرمت يادار أخشى
 الزقاق عشتاك . هو لم يدخل هذه الدار منذ زمن خيل إليه أنه عمر
 بطوله أو ليلة . البلاص الذي كان دوما نظيفا ومروقا بنقى الشمس .
 مبخرا باللبان المحروق ، الجوزة . هنا جالس رجال الليل أخذ منهم
 أعطاهم ، حدثهم ، حادثوه ، اتعبهم أبو ذراع ، طوفه حملته إلى الليل
 كان يكره عيلة السوالم ، كلنا نكرههم يافتح الله ، لكن جابر أفندي
 هو المتوى ، آخر محاولة معه ، أبو ذراع أقسم بالطلاق ، طول م ابن
 الكلب متحكم فينا م يعيش معنا كان يبكي كالحرمة . بإجماعة مع
 ابن الكلب ورائنا ورائنا في الفيظ ورائنا ، في الليل ورائنا ، أنا ه أعشى
 الشرقية ، لكن من قتل فهم بن زينه لحساب العمدة . غمغم اليجان
 حتى هانم لفت ودارت . كانت أحيانا تصمت . هي كانت تكذب وهم
 تشتم عيلة السوالم . طالت وقفته . نادى اسمها . هانم . هانم .
 ألقي نظرة على القاعة الجوانية . دمع الباب . وقف لدى البحراية .
 زكمته رائحة الرطوبة والتمعة تملأ أركان الحجارة . زلزل الأثاث
 في حجر داخل المصطبة فوق حصيرة باهتة هانم منكورة . محبها
 المحالط ابن حافت لأ يصل إلى أبعد من أذان الجدار . وصل إلى
 صوت فتح الله . استدارت . رفعت عينيها إليه . فتح الله أريك
 كثر خير . فتح الله ، أنبش والملح له سق . كانا كالأخوة . كيف
 تحدث . كنت . فتح الله عليه أن يرجع ، قالوا للامون معه .
 بعد فتح الله يستمتع بشبابه . الانقسام الذي عذب فتح الله
 أرتفع كله خالصا لهانم ، لكنه يحس أن دماغه هو الذي يدعه
 خلفه الصدر ، شلل الجسم كله ، افتقدتهما إذ بقاها هذه المر .
 تقدم إليها . حزين . حزين من أجل حالة هانم . جلس إلى جوارها
 دف صدره . أمسك يدها . أريك يا هانم . احساس قوي بالواجب
 يدعه . من راسه تسقط تصرفاته . هذه هي هانم يافتح الله
 تمن لها الشفاء . لم يطرح على فكره مابعد الشفاء . شجر كم جلبابها
 بغاس قديسة جرد القراء . رش ترابا ناشفا . فتح دولابا داخل
 المحالط . محب جلبابا نظيفا . اجلسها . اسند ظهرها إلى صدره .

بكوز ماء . شطعة قماش بللها ، مسح وجهها ، يديها ، قدميها ، تخلع
 عنها الجلباب الذي تلبسه ، تلبسها الجلباب المغسول ، أعد لها كوب
 شاي ، أعطها حبة أسبرين ، عصر لها شقة ليمون في كوز ماء .
 أرادت أن تفضي حاجتها ، أسندها إلى كتفه ، بدد خجلها ، عيب
 يهاهم ، أسنا أخوات . داخل الدار في مربط قديم مغزة بيعت
 قضت حاجتها . كنس لها المصطبة التي تشغل صحن الدار ، مصطبة
 رجال الليل ، قعدات المسمل والحشيش . فرش الحصى ، أجلسها
 على المصطبة ، وأربت هانم عينيها . الضوء يملأ الدار . يمانية تهدل
 على السطح . صحوة تتمشى في أوصال هانم . حلم . أكدت أنها
 لن تموت . الموت لا يقدر أن يأخذها من جوار فتح الله . فتح الله
 يعرف أن هانم هي ما يربطه بالبلد ، بلد السوالم . هل حقا كانت
 هانم تكرههم . هل تعود الحيرة داخل فتح الله . هل تفر دماغه
 منها . هل لحظة صحوها أرجعته إلى حيرته وإلى الانقسام داخله .
 أحس فجأة بضيق لم يدر سببه . أدارت هانم عينيها . ألمت بكل
 ما فعله فتح الله . نظرت إلى جلبابها ، يديها ، عملت ذاكرتها ، أحست
 بخجل حقيقي حين تذكرت خلعها جلبابها أمام فتح الله وقضاء حاجتها
 سمحت عينيها بعيدا عن فتح الله مداراة بخجلها ، عادت تنظر إليه ،
 أمسكت بوهن بكفه . ظلمت أن يجلسها ، في عينيها الدار نظيفة كأنها
 في ليلة عرس . حاولت أن تقف . لم تستطع . جلست . أدت بها
 الدار بشفة . صوبت وجهها نحوه . لم تكن تعرف أنه يجلسها كل
 هذا الحب . وفي المرافقة الزمنية التي أصبحت معها ، لم يديها
 النهاية . أحست بعته ضبابية أن اكتشافها فج متأخر . الله تفتتح
 داخلها دلائل صدق حب فتح الله لها مع دلائل الاحتمال المسددي
 بالنهاية . لم تستنم لحظة واحدة حالمة باكتشافها أنه يجيبها كل
 هذا الحب . ياسر أم بعدد خلايا جسدها « خلية خلية » ياسر كأنه
 العقوبة . عقوبة تكذبها هي وتخضع مرسمة لها . أمل لا يفسد من
 أفصاحه ، أن تحيا لحظة واحدة مع اكتشافها بعيدا عن يقين الموت .
 لا تملك القدرة من الحياة أن تسأل بأسها سبب عماها عن عاطفة
 فتح الله . لم يجد سديد . كانت تعرف أنه حتما كان سيفعل ما فعل .

كانت تعرف كلماته قبل ان ينطقها . تصرفاته قبل باتيها . لكنها
أبدا لم تكتشف قبلا ، ولا تكتشف الا في لحظة آفلة . احساس فوق
اليأس ، فوق الالم ، يفوق الحياة نفسها ، يعلو على الموت . المدة
على المصطبة . ظهرها الى الحائط . الى جوارها الرجل الذي احبها
تنظر اليه . ليس بعينها ، فان عينها قد كفتا عن وظيفة الابصار ،
تنظر اليه بخلايا جسدها كله مخترقة الملابس والسر والغموض .
احساسها لم يعد يرسم في شكل معنى . لا تعبر عنه الكلمات .
المعنى والكلمات ينتسبان الى شاطئ تقلع عنه . احساسها رؤى تنفجر
داخلها . هي ذاتها غدت رؤية . احساسها قليفة حمراء غامقة .
تزداد غمقة حتى اتصل الى لون اسود . احساسها ، قليفة لحمتها
الحياة بطولها ، سداها الموت بعمقه . حياة بلا نبض الحياة . موت
بلا همود الموت . حياة تموت . موت يحيا . في لحظة لقاء متوهجة
مكتومة معتمة ملعونة . اليأس لا يرسم معنى . يبرز شكل ارض
تسيخ تحت رجليها . الارض تنفتح . بئر تقع فيه بقدميها أولا .
تحاول قدامها ان تمسكا بارض ، بتراب . الارض تغور . هي يشدها
البئر . يشدها البئر . انها داخل البئر .. داخله .. يشدها ..
يشدها .

يحاول فتح الله ان يمد يده ، يمسك شيئا لا يقبض عليه . الحياة
ليست وقفا على ارادتنا . تعاش مرة واحدة . اكتشف لا بدريه الا
وهو يفقد هاتم . على الخشبة تمدد الجسد . غسلته المفصلة .
وضعت القطن على المخارج . كلوب صغير خافت الضوء تقدم النعش ،
النعش على كتف فتح الله . واحدة من مقابر الحريم ، انزلوها براسها ،
قالب من الطوب الأخضر تحت رأس الجسد المسجي . اهيل التراب .
فقيه ضرير جلس خلف القبر يردد كلمات كثيبة . لا وقت للحزن .
رجع المشيعون لاي زيد عددهم عن اصابع اليدين . تخلف فتح الله .
وقف وحيدا . الكلوب يبتعد . على المقابر يزحف ظلام ثقيل .. امه
.. سيد ابو دراع .. عبد الشاطر .. اخيرا هاتم .. الظلام ..
السكوت نواح خافت ياتي من بعيد ، من داخل البلد . بلدة كثيبة ،
مقبضة ، ليس بها مايربطه اليها . يبرز وجه خالته تضيق في جهامته
ابتساما يلتقطها فتح الله دائما . الاصابع الطويلة المعروقة . تحركت

قدماه . كان الطريق الثانى من داخل المقابر يقود الى جسر المصرف
 النظامى ، الحسر الذى ترقد البلد الموبوءة فى ظله . سارت القدمان .
 تبهمة مشاعر تلفه . لا يعرف شيئا . لا يدري شيئا . لا يرغب فى
 شيء . لا يرغب عن شيء . كل شيء كائى شيء . ماتت هانم حقا .
 هو يحبها الآن . ماعادت سدا فى وجهه . خالة انا هـ . هج . هـ .
 هج يا خالة . القدمان تخطوان . الكون كله ظلام وفراغ . تحت
 المقابر ظلام وفراغ . على سطح الارض ظلام وفراغ ، السماء ظلام
 وفراغ . وانتم يارجال الليل ، يا أصحاب ، قادم اليكم ، لم اقتل
 السيد ابو دراع صدقونى ، ردوا ، مدوا ايديكم هيناي توشك ألا ترى
 موضع قدمى . . رصاصة واحدة تضىء الطريق .

كل شيء حقيقة

.. امام المربع الذى كونه التقاء نهاية بطن الجاموسة البلجة مع
نخذه الايسر ويتدلى من وسطه الضرع ، جلست « نجبة » على
قرحها .. مسحت داخل الطاجن بيدها اليمنى ونفخته .. بين ركبتيها
وصدرها وضعت .. ضغطت ركبتيها قليلا لتحكم تمكنها من وضع
الطاجن .. ضغط الطاجن بجداره المواجه لصدرها ، حلمتي نهديها
... أحسست الدفء الخفيف فى جدار الطاجن .. سرت رعشة لم
نحسها فى بدننا كله .. تركزت ململة فى حشو بطنها السفلى ..
ارتجافة واضحة فى الجزء الداخلى من رحمها .. وبلا تحسديد
تعرضت « نجبة » لثبه مشاعر وارتعاشات واحساسات وضيق لم
تدر سببها .. لو انها حرة نفسها لقطعت مشوارا جرياعلى جسر التربة
.. اكتفت ان نفخت واتبعت نفخها استغفار الله العظيم .. حزن
حزن امرأة امت المحظور .. بأصابع يديها الاثنتين شددت بزاز
الجاموسة الاربعة كل على حدة ، برفق ، فى حركة حلب وهمية ..
الى ان حنت الجاموسة .. انتصبت البزاز فى كف « نجبة »
اسفنجية ، دافئة ، منتفخة باللبن .. عدلت « نجبة » من وضع
اصابعها ، وبين السبابة والإبهام ، ومن عند التقاء البر بالضرع ..
عكمته ، ونزات ضغطا ، فانبتق سرسوب اللبن حارا مندفعا الى قاع
الطاجن محدثا طشيبشا يطفىء الظما .. خلا دماغ نجبة وجسدها من أى شيء
حركة انتقال اللبن من ضرع الجاموسة الى الطاجن .. تحت سقف
الزربية حوم عصفوران من أعشاش القش الكثيرة التى بنتها هذه
المخلوقات الدخيلة بين سقف عيدان الغاب .. اصطدم واحد من
العصفورين بالمبة العافورى فوقعت على الارض .. أظلمت زربية
جابر افندى .. نهق حمار من طرف الزربية .. رد عليه من طرف
العزبة حمار آخر .. قطع عجل بقر الحبل الذى يربطه الى المدود ..
تشم أمه المربوطة الى جواره .. كانت عشارا .. لم يمنعه ذلك من
محاولة اعتلائها .. ابتعدت عنه بنصفها الخلفى نافرة .. تبعها ..

شدت البقرة رقبتها ، فانقطع الحبل الذي يمسكها الى المود ..
داست فوق الجاموسة الكديش المروطة الى جوارها .. كانت -
بلا احلام - تجتر .. قطعت عملية الاجترار ووقفت .. في الظلام
احسنت « نجية » صف البهائم قد انطلقت وانها موشكة ان تدوسها .
رفعت الطاجن .. وقفت على حيلها .. لطم رأسها وطواط يحوم في
سقف الزريبة .. حاولت ان تلمس ضيقها بين الجاموس والبقر
والحمير .. غارت قدمها في درقة جلة ساخنة .. احسنت بحنف
وضعف .. ارتسمت داخلها لعنة على البهائم وآبائها وعلى اصحابها
وآبائهم .. لم يكن جابر افندي في ذهنها وهي تلعن اصحاب البهائم
.. كلماتها المنطوقة كانت نداء مكررا على سيدتها الحاجة فطوم ..
جاء حسان تسبقه دائرة ضوء ملقاة من بطارية .. دائرة الضوء
تتحرك فوق الوحل والشرب ، وبولة حمار بالها في موضع حافر
جاموسة غائر .. البولة صنعت بحيرة .. اعواد برسيم متناثرة ..
عين حسان تسجل .. مع ان حسان بقده يسير في الظلام خلف دائرة
الضوء فان « نجية » راته في طول باب الزريبة ، اطول من صالح ،
الرجل الذي خرج ذات صباح مع البهائم وعادت البهائم دون عودة
صالح . تبينت نجية بوضوح داخل رأسها اعلى صدر حسان تكشف
عنه فتحة طوق جلاليته .. البريق في الظلام يخيف - لا نعرف
لم - لكنها بحثت عنه بعينيها في وجه حسان .. اوقد حسان اللمة
العافورى .. وضعها مكانها فوق رف الزريبة .. نادى صبا لربط
البهائم .. انذار خارج الزريبة .. حسان الصعدي - حسب ماتناديه
نجية بصوتها - لم تألف منخاراه بعد رائحة زرائب الفلاحين .. الزريبة
برمتها في خباثيم « حسان » دكان عطارة .. في انف نجية تكاد
تكون كل رائحة محددة ، بول الحمير له رائحة مالحة مقيئة ..
الجاموس والبقر بوله مائع الرائحة ، تكاد لضيقها به ان تتحسس
باسانها .. كارها . استجاب حسان لطلب « نجية » .. أمسك
براس الجاموسة البلجة حتى تنتهي نجية من حلبها .. الاشمنناط
المرتسم على وجه حسان كان مناسبة لان تسأله نجية عن عدد
الذين فنلهم في الصعيد حسان فوضها ان تختار العدد الذي يروقها
.. حسان لا يفرق بين ان تقتل مرة واحدة وان تقتل الف مرة ..
حسان الواقف امام رأس الجاموسة .. على حدقتي عينيه ضوء
اللعة العافورى الباهت الذي يشغل وسط الزريبة .. اركان

الزربية الثمانية مطموسة تحت ظلام لا يوصله ضوء .. ظلال البهائم تقع مختلطة على أجسامها .. الصبي مازال يربط البهائم .. أسود قش في أعشاش العصفائر تتدلى من سقف الزربية .. انفه يلتقط الروائح الفواحة يحاول أن يميز بين كل رائحة على حدة .. صوت شخب اللبن في الطاجن تتعوده أذناه .. همهمة نجية مصرة على أن تعرف العدد الحقيقي للناس الذين قتلهم .. مخيلة حسان هناك .. ينزل من مغارة في بطن الجبل .. فى كتفه البندقية الميزر .. بتطلع الى السماء .. يشاهد نجومات اربع .. الليل انتصف منذ وقت ليس باليسير .. هذه المغارة فريدة .. تقع فى منطقة .. تنكر كل من محافظتى اسيدو .. وسوهاج تبعيتها اليها .. ظلمة الصعيد ظلمة صافية ، ظلمة خالية من اللون الاسود ، ظلمة ظل الجبل يختلط والشمس وراءه ، بالسحاب .. لكن ناسه سود عجاف .. العيال كلهم عيائين .. أنتهت نجيه من حلب الجاموسة البلجة .. سار حسان امامها باللمبة .. نجيه تسأل ، حسان يرد ، انه سيفنى الليلة .. ازاء ما اخبرته به نجيه من انها ستحضر الفرح ، أحس حسان بالتزام الشهامة - فهما يعملان فى دار واحدة - أن يرعاها فوق السطح وهى مع بنات ونسوة العزبة اللائى يتفرجن على الفئتين ، وأن يصحبها عند عودتها بعد انتهاء الفرح .. نجيه تحاول أن تعرف من حسان الموال الذى سيفنيه .. حسان يرد بكلام لم تفهمه نجيه . حسان ليس محترف غناء مواويل .. سيفنى الموال الذى يخطر على باله .. أنتهت نجيه من رص طواجن اللبن وغسل المواعين .. وقبل أن تنصرف سألت سيدتها الحاجة فطوم تستأذنها فى الانصراف .. الراجب الاخير على نجيه أن تؤنس سيدتها مع العيال حتى عودة جابر أفندى من الجامع بعد صلاة العشاء .. زامت نجيه .. فى ذهنها أن جابر أفندى ليس ممن يحرسون على الصلاة ، حسان موضوع حديث الحاجة وخادمتها . حكّت الحاجة أن حسان قاتل ، وانه قد قتل أمه لأنها تزوجت رجلا آخر بعد وفاة أبيه ، وانه قد هرب بمسد جريمته . تعجب الحاجة من امر حسان ، فهو رجل طيب ، وأن حلال ولا يرفع عينه أبدا ، وأصابه مثل أصابعنا نحن .. نجيه استأذنت سيدتها فى تصحيح الحكاية ، فحسان قاتل حقا ، ولكنه لم يقتل أمه بل قتل زوجته وقد ضبطها فى حضن واحد من أصحابه .. حسان قتل الزوجة ومازال ينتظر الفرصة حتى ينسى الناس

وينسل عائدا الى الصعيد لقتل العشيقي ، وظلّبت نجيه من سيدتها
الآثامنه ، فكل القتل يدون طبيين أبرياء .

جابر افندى ، شيخ العزبة الذى لايلبس طربوشا ، رجع من الجامع
فى رواية زوجته .. ومن مكان آخر فى زعم نجيه .. جابر افندى
له معلوماته الادارية التى تخالف معلومات حريمه ومعلومات خادمتيه ،
حسان مجرد ولد حرامى من الاشقياء ، وذات ليلة كان يسطو على
منزل رجل طبيب مستور .. الرجال الطبيون فى الصعيد قلائل ..
استيقظ صاحب الدار وضبط حسان يسحب البقرة .. حسان
قتل صاحب الدار .. لم يبق أمامه الا أن يهرب من الصعيد كله ،
ويسبح فى وجه بحرى ، ويحتمى باهل السطوة .. جابر افندى
هز رأسه ولكنه لم يخط على صدره بطرف اصابعه المفردة .. الحاجة
فطوم بدا منها مايدل على عدم التصديق .. كادت تقص حكاية قتل
حسان لاه .. اندهش جابر افندى من ان زوجته الحاجة لم تؤمن
على كلامه التى قالها وتلك التى لم يقلها .. مع أن ضوء اللعبة الفاز
نمرة عشرة لاساعد على ابراز ملامح الجالسين فى المندرة ، الا ان
الحاجة فطوم ، وكانت على خلاف مايشى به اسمها ، ذات ملاحظة ،
تخلت تقاطع الوجه المندesh الغاضب ، وكما توقعت .. اسمعها
جابر افندى الحديث الذى نسه الى نبي المسلمين عن نقص عقل
النساء وايمانهن .. امنت الحاجة فطوم .. حوالت .. بسملت ..
صلت على من وضعت يدها على شبابه ، البنت نجية اعترضت على
سيدتها .. اقسمت بالسب زينب الطاهرة أن حسان قتل زوجته ..
وترجعت بعندتها الى جابر افندى خاصة ، مؤكدة أن ليس اطيب من
النساء .. جالت بعينيها .. فى حسد .. على جدران المندرة .. مطلية
بالجير الابيض .. اجزاء من الطلاء سقطت عن طبقة الطين الاسود
.. صورة دباب بن غانم على فرسته البيضاء يطعن بحربة طويئة
الزناتى خليفة .. دارت نجيه مع الكنب الاسطامبولى .. عم الشحات
خفي الحكومة ،لقى بندقيته الى جواره .. ينفع النار فى الطاجن
يسوى عليها براد الشاى .. الدموع تملأ عيني الشحات من الدخان
وتنزل الى شذريه الكثر المهوش .. جابر افندى بين شففيه غابة
الجوزة .. جابر افندى يقطع باسنانه قطعة خشيش يناولها الى عم
الشحات .. شيخ العزبة يتهم الخفير بانقطاع النفس .. فجساءة

تذكر نجيه الفرح وحسان .. تهب خارجة الى الشارع متجاهلة
نداء جابر افندى .. مهممة في داخلها بما يمكن ان يصاغ في
كلمات .. حرام عليكم يا ناس يا كفره يا اولاد ستين كلب .. سيبنى
اشوف نفسى .

- ٢ -

القت نجيه حزمة برسيم الى الارانب داخل جحرها تحت المصطبة
التي تشغل اكثر من نصف الحجرة والتي تتخذها منامة تفرش فوقها
الحصير .. آلت نجيه حزمة برسيم ثانية الى الخروف الصفير
المربوط في البحراية .. نظرت الى مشنة العيش .. افتقدت رفيقين
وحزمة بصل وقطعة جبن قريش .. عرفت ان اسم النبی حارسها
ابنتها هانم قد تناوات عشاءها .. غسلت نجيه رجليها ووجهها
وتزينت وارتدت فستانها الكستور المشجر الذي زفت فيه الى
صالح .. رغم ان الجلاية او الفستان متلازمة مع صالح ، بحكم
انه هو الذي اشتراها . وبحكم انها قد لبستها لأول مرة من اجل
صالح ، فان نجيه لم تذكر صالح ، ولم يرسم في مخيلتها ، بل ان
نجيه لم تربط بلدهنها بين ابنتها تلك التي تأكل أرزا ولبنا مع الملائكة ،
وبين صالح ، وهو الرجل الذي وضع داخل نجيه بذرة هذه
الابنة ، ان « صالح » خلافا لكل معلوماته رغم انها من اخص خصائصه
.. وضع بذرة هانم ظهيرة يوم صائف قضى ليلته بعيدا عن نجيه في
غيظ القطن .. ليلة قضاها ساهرا تحت الساقية كي يقوم بتوزيع ما تدفعه
الساقية من ماء على خطوط ارض القطن ولو سهى او نام وغرق القطن
وذبل فعقوبته يعرفها جيدا .. علقه من جابر افندى او اتهم بسرقة
الحراث الخشب .. صالح جاء ظهرا الى حجرة نجيه .. انسل
والقى بنفسه على المصطبة .. دخلت نجيه .. جلاية صالح منكورة
تعت جسده .. رجلاه مكشوفتان .. سيقان لا تأخذ لونها من الالوان
المعروفة .. اسود ، ازرق ، اصفر ، ابيض مدلوقة تحت جلد صالح
.. شعر جاف خشن .. باطن قدمه لا تستطيع ان تحدد ما اذا كانت
مفسولة أو مغطاة طبقة من الطين .. على ان هذا الطين - على فرض
وجوده - لم يعد طينا .. انه طين تألف مع الجسد الحى .. أخذ
منه واعطاه .. خضع الجسد والطين في القدم لمتطلبات المشى والجري

على الشوك : التراب ساخنا يحرق في الظهيرة وبارداً يرجف في الشتاء .. في طن القدم شقوق .. في الشق الواحد تخفى أصبع طفل .. تأملت نجيه الجسد ، لا تحس أنه مكدود .. لا تسمع الشخير العالي الصادر عن جواز تنفسي مختنق . في اذني نجيه طنين .. طنين لا علاقة له بالشخير .. طنين حقيقي بلا رمز او دلالة .. جسد صالح تعرض لعملية هز قاسية عنيفة .. نجيه تسأله ، اذا كان يريد ان يشرب ؟ كذلك تطلب منه ان يغطي نفسه .. قصارى ما فعله صالح انه اعطى ظهره للجدار .. كانت الحصيرة مثقوبة في الموضع الذي التقت فوقه نجيه وفريستها .. ظهر نجيه لم يحس بالثقب .. لالتشابه بين ظهرها رقدم صالح .. الثقب قد نعمت ورقت وتآكلت حوافه . لان الحصيرة ولونها معا قد خضعا لعوامل الزمن .. عينا نجيه المتجهتان الى السقف لم تسجلا طبقة الهباب والسخام وهي طبقة حقيقية من الهباب .. طبقه من الهباب بلا رمز او دلالة .. شبشب نجيه يطرق بصوت مسوع على ارض الحارة .. نجيه في طريقيهما الى الفرح .. فوق السطح الذي يطل على الوسعاية داخل العزبة وبين النسوة والبنات ، كمنت نجية .. ضوء الكلوبات التي تنير الوسعاية سقط على وجوه النسوان فوق السطح ، الكحل الاسود في العيون وعلى الرموش ، لطشات اللون الاحمر على الخدود بانث .. في الوسعاية ذاتها تحلق الرجال والاولاد جلوسا على الارض في ايديهم شماريخ وخيزانات من سوق الخميس في السنبلادين عصي من فروع شجر وزارة الاوقاف الذي يحيط بالعزبة والفيطان .. بنديقة الحكومة معلقة على كتف الخفير المرى .. الخفير بهن بخيرزانة طويلة خطفها من ولد غنام .. الخفير يطلب من الرجال بأسمائهم ان يسكتوا ومن الاولاد منسويين الى آبائهم ، اما الاولاد الذين مات عنهم آباؤهم وهم صغار فينسبهم خفير الحكومة الى امهاتهم .

- البت هانم بنت نجيه .

وتبادلت النسوة فوق السطح اماكنهن الى ان جلست كل منهن امام الوجه الذي تبحث عنه ويبحث عنها .. التقت عينا نجيه بعيني حسان .. ابتسمت نجية ولم يتسم حسان .. وغنى لطفى الميهي من رجال العزبة موالا عن شجرة السنط التي رواها بدفع عينه في بؤونة .. حبيب المغنى الذي يجوب قرى وعزب وكفور العب .. يصنع النسوة بصوته الخشن قنى موالا عن البنت بيضاء اللون التي ترمي

البل في الحنة .. قلب الرجال حسان .. دون قصد ، ونعت عينا
حسان على نجيته وهو يغنى :

- ملا .. ملئ قربته

فيه تصافى نيل

- ملئ وسابها يا ليل

في الشرع تلزم مين

- تلزم جدع جد

يسوى من الرجال الفين

.. انتفضت مهتاجة الاجساد النحيلة المرهقة بحصوات الرمل ،
متعددة الاحجام والتراكيب ، داخل قنوات الكلى ، وجع الجنب الذي
يتحاشون ذكر اسمه صراحة ويسمونونه المخوف ، وقف الرجال
كلهم منتشين في فرح غامر لم تفرزه بذاتها هذه الاجساد ، فالمثانة
ملينة ببول مدمم ، وارتفعت العصي والنبابت ونطقست الالسن
المكتومة ، التي لا تتحرك الا لبلع الريق ، طالبة من الصعيدي مزيدا
من المواديل ، ومحبية الرجال الظنابا ، وهاتفة باسم الليل والعين
والحب والسجن والفقر والجدعان .. وانطلقت رصاصة شسنت
ببارودها المحترق ، ظلاما فوق العيب كله .

- ٣ -

مع الحوارى الضيقة المظلمة والتي يسقفها التقاء الحطاب على جدران
صفي الدور فيها .. مع نباح الكلاب على كل شبح .. مع نهيق
حمامين في طرفي العزبة .. تنتقل خطوات حسان .. في هواة ..
في جيب صدرينه مدية داخل جراب جلد .. في يده عصا غليظة
بتحسس بها السكة .. عصاة الصعيدي ذراعه .. في راسه صورة
أنته .. صغيرة ، لم تعد سنتين .. مرت أعوام عديدة ولم تكبر
صورة الصغيرة عن آخر مرة رآها ، بطنها عريان حتى الصدر ..
منتفخ قليلا .. ارجلها رفيعة وجهها منسوخ .. على عينها ذباب كثير
.. الصورة ثالثة داخل دماغ حسان .. ستظل الصورة كما هي
باقية .. رقدماه تحملانه الى كل مكان ، الا حيث توجد صغيرته .
داس حسان على عصاه فوق الارض .. اذناه . والصورة تتحرك
ثابتة داخل رأسه . ثلثتان كلمات نجيه .. نجيه مع انها انتشت مع

المنتشين ، حارت مع كلمات الموال .. لم تتوقعه .. ليس فيه كلمة الحب .. نجيه ترفض موضوع الموال .. ترفض ان يكون من مجرد ملء قربة بالمياه اغنية يرددها الرجال في الافراح .. حسان هو الآخر لأول مرة يفحص كلمات مواله .. لكنه موال عزيز لديه .. طالما رددته لنفسه .. في الظلام احست نجيه ان « حسان » يتسم .. لم تفهم لم .. لقد دمت عيناه ذات مرة وهو يندندن لنفسه ، داخل وعيه ولا وعيه جميعا ، بكلمات الموال ، ذات ليلة كان مخلفا وراءه مدينة الاسماعيلية في طريقه الى الزقازيق .. كانت ليلة مظلمة ، قضى اولها مشيا ثم استراح الى مقهى .. واحدة من المقاهي ، عشش سفيح او غاب تقام على جانب الطريق .. اصحابها رجال واحيانا نساء لهم عين تعرف الغريب ولا تنكره .. تقدم له كوب الشاي الساخن .. كرسي المعسل ولا تتردد عن دس حبه « آفيون » ودائما كلمة طيبة تفوق كل المخاوف .. صوت عم الشحات الخفير يستفسر من القادمون .. اخذ سيجارة من حسان .. نهر نجيه بنت الكلب .. كيف لا ترد على جابر افندي حضرة العمدة وهو يناديها .. لم تكتمل في فهم عم الشحات كلمات نجيه الساخرة وهي تحدثه عن الشر الذي حصل لها من عم الشحات ومن حضرة العمدة .. ونفعت اللعينة كلمة حضرة العمدة بما زاد من ارتباطك عم الشحات داخل معطفه الذي كان اصفر والذي ارتداه لأول مرة ذات يوم من ربع قرن مضى .. كان عهدة واحد من جنود الحلفاء واشتره الرجل قبل ان يدخل خدمة الحكومة من سوق السنبلاوين .. بأربعة برايز استرد منها اجرة الاتوبيس ولم يخلعه منذ ذلك التاريخ .. وهو تاريخ حقسا لا مجازا ، لان عم الشحات يؤرخ بهذه المناسبة ، فانه احمد انجييه قبل ان يشتري المعطف بستتين بل ان الانجليز حاربوا الالمان سني شراء هذا المعطف .. ومعطف عم الشحات وان انتسب تاريخيا الى اصل اجنبي الا انه الآن واحد من مواطني العزبة .. مواطن مستقل ، حتى ان عم الشحات لو خله لهب المعطف في الصباح الباكر مفادرا داره الى مسجد القرية بدخل دورة المياه يقضي حاجته ويتوضأ ويصلي ركعتين ويلقي على رجال العزبة في طريقه الى المسجد ، ومنه الى داره تحية الاسلام ، ويرد التحية ، حسب الاصول ، فلو القاها واحد من الشغالة لرددها « وعليكم السلام والرحمة » ولو القاها واحد من اوساط سكان العزبة يرددها « وعليكم السلام ورحمة الله » ولو

انقاها عين من اعيان العزبة .. واعيانها قليلون ، لرد معطف عم الشحات التحية « وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته » وسارع المعطف بتقبيل اليد .. بل ان المعطف يحمل فأسه ، اعنى فأس عم الشحات ، الر غيط جابر افندى او غيط الوسيه في العزب المجاورة .. وان معطفنا .. وقد صار عم الشحات واحدا من الساهرين على امن المواطنين .. يحمل البندقية ، ويكوع على مصطبة بعينها ، ويعترض القادمين ، ولا ينسى ان يطلب سيجارة من المعارف ، ويقول نفس الكلمات :

— ازاي يابت بانجيه يابت ستين كلب جابر افندى شيخ العزبة ينده عليكى المشية وماترديش ؟

على أن الفعل الذي كان سيقدم عليه المعطف مخالفا في ذلك عم الشحات .. انه ، لو انه بمفرده ، ماتردد عن صفع نجيه على وجهها جزاء سخريتها من جابر افندى في شخصه هو .

امام حجرة نجيه وقف حسان متبها للانصراف .. عزمت نجيه بكوب شاي .. تناول حسان اربع بيضات مسلوقة برغيفين .. نجيه تنفخ في النار تعد الشاي .. حسان طلب عود حطب من النار بشعل به سيجارة .. امسك نجيه من ذراعها .. نذت عنها صرخة مغرقة من كل البيان النفسى والعصبى للصرخة .. ومع ان حسان لم يفهم المسألة على هذا النحو ، فلم يفت الصعيدى ابن السكك التى لا تنتهى نوع الصرخة التى اطلقتها نجيه ، حسان امسك ذراعها الاثر بسراه ، تلاهت نجيه ، اساء حسان تفسير الصوت ، كانت الامة الما جسديا من اليد الخشنة ، له تكن اشارة ان تقدم بالطريق مفتوح على مابرام .. في الوقت الذي كان حسان على المصطبة جسدا خالسا .. كانت نجيه تمر خالصة لجسدها ، كان دماغها يعمل ، في مخيلتها صورة صالح زوجها ، فى فكرها عتاب ليس كاملا لصالح ، بل انها تذكرت مقام سيدى الشيخ صلاح الدين ، الذى قيد بغير حبال ، الرجال الذين حاولوا ذات ليلة ان يسرقوا زرع البصل من الغيط اقام فيه مقام سيدى الشيخ .. وقد ابقاهم سره البائع مربوطين الى الارض حتى جاء فى الصباح صاحب الغيط ، وهو الذى يقوم على خدمه المقام ، وتضرع الى الشيخ صلاح الدين ان يصفح عنهم .. واذا ايقن حسان انه موشك ان يصل الى هدته .. طرقت اذنيه مما يتحدثون نجيه مقسمة بحياة سيدتها زينب الطاهرة انها ستصوت

وتلم أهل الحارة وأهل العزبة جميعا إذا لم يتركها .. تحرك شيء
 فى جسد حسان يدفع كفيه أن يطبقا على رقبة نجيبة ، شاهد لسانها
 يتدلى مع فقاعات اللعاب من فمها .. ونفذت من أذنه .. مرة ثانية
 .. كلمات نجية القاطعة طالبة أن يسببها .. لم تكن نجيبة ترفض
 لقاء حسان .. بل أن تحقيق هذا الشيء بذاته كان ملء دماغها ، وملء
 كل خلايا جسدها ، منذ دخل الزريبة ، ووقف أمام الجاموسة
 الملجة ، حتى هذه اللحظة ، وهى تقسم بحياة سيدتها زينب الطاهرة
 .. وفى اليرت الذى كانت نجيبة فيه راضية بفكرها وبجسدها ،
 رافضة بصونها وبفعلها ، كانت عينها تسجلان تهديم الرجل الذى
 أمامها ، بمتعة حسية ترتد بأصولها الى الكهف الاول .. بشكل
 غامض ، ورغم شدة الرفض ، كان دماغ حسان بما يصل هذا
 الدماغ من مشاهدات تنقلها اليه العين ، وعلى وجه الدقة : من خيوط
 من موقف نجيبة تنقلها عين حسان الى دماغه ، ومن أصوات ، أو من
 خيوط من صوت نجية تنقلها اذن حسان الى دماغه .. من خيوط
 من فعل نجية وصوتها .. كان حسان يحدد أن رفض نجية ليس
 قاطعا ، لذلك : فجهاذه ظل مستمرا ، رغم كل التهديدات ، وطالت
 المناهدة حتى انهك جسد حسان ، وعجز دماغه عن تسجيل خيط
 الرضى وسط حزمة الرفض .. تقدم الجسد يائسا بلا تهدم يعارك
 نجية ، سجلت نجية التفجير الذى طرا على الموقف دون إدراك ماهية
 انفجير .. المرأة التى كانت راضية بجسدها وبخيالها ، افتقدت الرجل
 بهديم أمامها ، وواجهت جسد حسان وذراعيه .. حسان صار
 جسدا اعمى يعارك لا يعرف ، يعارك من أو يعارك لماذا ؟ وفقدت نجية
 المتعة ، وتوحد توزعها الى رفض لا تكاد تعرف رفض ماذا ، لكنه
 رفض المطلوب فى لحظتها هذه ، وتصدى جسدها بأدواته .. جسد
 لا يثق فى قدرته الذاتية ، لكنه بدنيا مصمم دائما على أن يحمى نفسه
 .. لقط حسان الاستغاثة قبل أن تنطلق ، وفك ذراعيه .. سنك
 طريقه فى الحارة المظلمة الباردة لاهثا .. لم يتعد كثيرا قبل أن يلتفت
 على صوت أنثوى رائق خنون .. كانت نجية تمد يدها .
 - السكية ياسى حسان وقعت منك ع المصطبة .

فى الصباح الباكر .. امام رأس الجاموسة الكديش ، وقف حسان
 يهرش جلدها فى المنطقة المحصورة بين قرنها وجنب رأسها ، والتي
 لا تطولها الجاموسة مهما حاولت حكها بظلف رجلها الخلفية ...
 الجاموسة مقلية برأسها على حافة المدود ، تاركة نجية تنقل اللبن من
 الضرع الى الطاجن ، بنظرة جانبية رصدت نجية حسان .. رغم ان
 اذن حسان لم يتغير وضعهما ، فقد رأتها نجية متهدلتين كأذن حمام
 بعد يوم كامل فى نقل الوحل من الزريبة الى الفيط .. نجية لم تتأمل
 داخلها .. لا تعرف لم رفضت بقينا ، فى ذهنها فكرة مبهمة عن ان
 ذلك حرام .. حرام لماذا لا تعرف .. كانت خالية من الزهو ، رغم
 اذن الحمام المتهدلتين ، لم تعد ماحدث انتصارا لها ، أو لفكرة رفض
 الحرام ، على ان ذلك لايعنى انها آسفة ، وحين سألت حسان عما إذا
 كان مازال زعلانا .. لم تكن تقصد اكثر من فتح باب للحدث مرة ..
 حسان اذنه تسمع كلمات نجية بموقف من لم يحدد موقفه بعد مما
 حدث .. السمل بجمعه بنجيه ، ومجرد لقاءهما أو استماعه لها لايفسر
 بأكثر من ذلك .. وهو يستمع عينه تدور داخل الزريبة .. الزريبة
 واسعة .. ضوء الصباح اثارها .. بقرة قبول .. السمائل يسقط
 من بين اعلى رجلي البقرة الخلفيتين .. النيل تندفع مباحه من قنطرة
 اسنا .. فى المفارة ، بين محافظتى اسيرط وسوهاج ، حيث الاحتماء
 من رجال الشرطة .. سبحانه الله .. كان اسمهم البوليس .. الرجال
 هناك داخل المفارة .. يدخلون منجابر الحشميش .. برعى بفجئهم
 بحكمة توصل اليها عن وضع المرأة .. الى جانب كل رجل بندقيته
 .. المدفع الرشاش داخل المفارة .. برعى يقسم بالحرام من ذراعه
 .. برعى له زرجة لكنه لا يحلف بالطلاق .. تمارع دق قاب حسان
 امام الجاموسة الكديش فى زريبة جابر الهندى .. ابن برعى ..
 اعاد الى سجن اسيرط .. ام مازال ينقل بين مزارع الحبل مفارة ،
 مفارة .. برعى يقص الممارك التى خاضها المطاريذ .. برعى صاحب
 قلب لا يخاف .. السجن اكثر راحة وامنا من نهار الصعيد .. كانت
 احلام الرجال عجيبة .. فى النهار يحلمون بالقبض عليهم .. الشاذق

تقف لا تطلق الرصاص .. فى أحلامهم دائما مكسورون امام رجال الامن .. اتفقدنا ذات مرة طوال حديث ليلة .. انهم فى أحلامهم اضعف منهم فى واقعهم .. فى الأحلام دائما يسحبهم رجال الامن مربوطين بالحبال .. نهارهم مقبض مخيف بالأحلام .. الليل هم أبناؤه .. رجال الليل .. حكمة برعى .. ليلة .. أقسم بالحرام .. المرأة لا تستطيع ان تفتصب الرجل .. الرجل وحده فى قدرته ان يفتصب المرأة .. حكمة ربنا استنتجها برعى وامن عليها رجال المفارة .. لكن « حسان » لم يستطع مع ذلك .. حسان لم يعد رجلا .. نزل من الجبل .. نجية لا ترضى هذا التوزع فى حسان .. هى لا تصل الى انه توزع فى حسان .. تفسره على انه زعل مما حدث .. هى تخطط بين عودة التوزع داخلها نفسها بين الرضى والرفض ، وبين رغبتهما بحديثها فى مصالحة حسان .. عودة نجية الى موقف الوسط بلا شك فى نفس الوقت خطوة تستلزم مصالحة « حسان » وان تلك خطوة لم تحسم المشكلة التى بدا انها شاغل من نوع جديد بطرق حياة نجية ..

كان طلب نجية الى ستها الحاجة فظوم ، ان يصحبها حسان بالطحين الى القرية المجاورة ، عملا داخل المشكلة ، بل انه تعامل مع المشكلة وجها لوجه .. حسان يسوق حمارا يحمل زكية أرز .. نجية وراء حمار ثان يحمل زكية قمح ، فى طريقهما الى مكنة الطحين الحديث بينهما حديث بين اصدقاء .. لم يعودا مجرد رجل وامرأة جمعتهم ظروف الخدمة فى منزل سيد واحد .. فى حاضر نجية ليس حسان الصميدى .. ليس واحدا من الرجال العديدين الذين يلقطهم جابر افندى من الطريق ، يقدم لهم الرغيف وقطعة الجبن وباكوا الغسل او السجارة .. واخيرا الحماية .. اصبح .. واصبح هنا فعلا كاسلا .. اصبح حسان كائنا محددا بذاته داخل معارف نجية .. كان ماحدث بالامس لم يكن فشلا لحسان او انتصارا لنجيه ، وهو كذلك ليس العكس .. ان صفتى الفشل والانتصار لاموقع لهما هنا .. نجية تحاول صادقة ان تجذب حسان الى النظفة التى وصلت اليها .. ترضى الان ان تنعس فى حراسته .. لا تخاف من سكينه يضعها حسان على رقبتها .. ذلك لا يمنع انها سمته قبلا ، قاتل قتلى جهلا به ، وهى تسمية الان قاتل قتلى مزاحا ودردشة ، وسعسميه فى الغد قاتل قتلى دون ان تدري آنذاك حقيقة

مشاعرها .. حسان يتلقى صدق مشاعر نجيه .. لا يحمل لها داخله كرها أو حبا .. امرأة فيها أون نساء وجه بحرى وملاحتهم وعادة لا يرفضن .. وهما يسقطان الى المغارة اذ لم يكن لها باب ال ثقب على سطح الجبل ، برعى حدره من نساء الصعيد .. الأوجب الحرص من نساء وجه بحرى .. هذا لايعنى ان « حسان » فى داخل سد صفيق تقف بينه وبين نجيه .. هو محق لو اكرر مثل هذا الحاجز اساسا .. هو رجل مسالم ، لا يقوى ان يواجه التودد الانسانى بالجمود ، او باللامبالاه ، او بالحدر .. سرعان ما ضحك كطفل ، وبانت اسنانه البيض وسط وجهه المستدير الفائق السمية .. اشعل سيجارة .. عبر عن شفقة حقيقية ازاء الجهود البدنى الذى تبذله نجية فى منزل جابر افندى .. نجيه ترى انها القسمة والنصيب ولقمة العيش .. القسمة والنصيب . همارب حسان .. لكن لقمة العيش لا تملكه .. نجيه تعارض مؤكدة احسان ان لقمة العيش تملكتنا جميعا .. فندما يعاود حسان اصراره على ان لقمة العيش لا تملكه تفاجئه نجية ، انه لو كان يملك فى الصعيد ارضا وبهائم مثل جابر افندى ، ماساح فى بلاد الله الواسعة .. حسان لا يفضب ، يقتصر على انه لا يرضى ان يكون مثل جابر افندى .

عندما عادا وقد بيضا الارز وطحنا القمح ، كانا قد اتفقا على الزواج .. نحن لا نملك مضبطة الحديث بين حسان ونجيه ، الثابت لدينا ان الحاجة فطوم - كمادتها - اندهشت من اقتراح نجيه ان يصحبها حسان الى مكتة الطحين ، وانها - الحاجة - قد افضت الى زوجها بمخاوقها التى تراها برهانا على انها امرأة حريصة واعية .. جابر افندى - كمادته - سخر من مخاوف زوجته ، ولم تمنعه السخرية - كالعادة ايضا - من ان يأخذ براياها ويبحث عن آخر يصحب نجيه ، وووجه فعلا بعدم وجود من يصحب خادمته وهى تطحن الطحين .. فالفيط الزم له الخفراء . وتمادى فى اظهار سلطته الادارية فى مواجهة زوجته باصراره على ان يكون حسان مع نجيه ، وفى السر اتصل ، عن طريق تليفون الحكومة .. بعد القرية المجاورة ، بصاحب مكتة الطحين .. نقلت نجيه الى حسان مخاوف سيدتها . رد الصعيدى الطيب انه عندما يريد ان يسرق فان يركب حمارا ليسرقه بل سيركب جابر افندى نفسه ..

الثابت لدينا كذلك ، ان حسان ، رغم احاديث المغارة ، وقد احس

التودد في كلمات نجيته ورغبتها الصادقة ان تنقله الى المنطقة التي وصلت اليها في علاقتها داخليا بحسان ، لم يكن لديه بقلبه الطيب ان يواجه صدق نجيته بالحدس أو الجمود .. حسان سأل نجيته عن أصلها ، وفصلها ، وماذا اوقعتها في دار هذا الرجل .. نجيته بلا اصل وبلا فصل وبلا حكاية ، ثبت في دار جابر أفندي .. أمها كانت قبلها خادمة في دار جابر أفندي .. لم تر لها أباً .. ولولا ان اسمه منقوش على ختمها ما عرفت اسمه .. لم تحدثها المرحومة أمها عن أبيها .. المعلومة الوحيدة الاكيدة ان أباه لم يكن من رجال هذه العزبة .. أمها نفسها ، والله وحده هو العالم ، لم تكن من نساء العزبة .. الناس في العزبة لا ينسبون لها اسم أبيها او حتى الى اسم أمها .. نجية التي تخدم في منزل جابر أفندي .. نجية زوجة صالح الذي يخدم جابر أفندي .. ارتسمت في مخيلة حسان ارض الصعيد .. رملية صفراء .. قيطان العدس بنواره ... بنواره الزاهي .. البطن الصغيرة العارية المنتفخة .. الأرجل الرفيعة .. حادثة الامس نقلت نجيته الى جوار حسان .. رقم ان الحادثة لم تحقق قنيتها ، ولم تحقق الا ذاتها ، ولم تخط خطوة واحدة ابعد من كونها قد حدثت .. حسان انتقل الى جوار نجيته بشيء مختلف عن حادث الامس ، بل .. رقم حادثة الامس .

واذ علمت الحاجة فطوم بموضوع الزواج - كمادتها - اندهشت ، ورفضت على اساس ان الرفض يعطيها صفة الحدس والحرص ، فضلا على ان حسان في زعمها قاتل .. جابر أفندي هز رأسه ، فحسان ، في زعمه ، مستعملا لغة عمدا بلدنا ، مجرد متشرد ، حرامى ، لم يحد من يرد .. على ان حسان اماننا ، وعلى نقاب الارغول قننى موالا لم تفهمه نجيته . ، او لم تحاول ان تفهمه .. والمساوئ نفسه ، اثار دموع حسان ذات ليلة .. حسان لم يخترع الموال ، ولذلك فالموال لا يفسر حسان ولا يفسر الزواج ولا يفسر الموال اي حدث تاريخي .

— ٥ —

.. في اوراق مركز شرطة السنبلاوين ، او محافظة الدقهلية ، لا تنسب العزبة الى جابر أفندي .. جابر أفندي نفسه ليس افنديا

.. إلا أن هذه الأوراق لا تلزمنا .. ولن نعرف العزبة إلا بعزبة جابر
افندى .. رغم الطاقة وبر الجمال التي تعلى يا فوخه .
.. على طريق الجازورين ، الذي يربط عزبة جابر افندى بأكبر
قرية مجاورة ، والذي قطعه حسان ونجيه في الصباح ذهاباً إلى
مكنة الطحين وعودة منها .. وبين الأشجار العالية في ظلمة لم تصح
بعد مخيفة .. بين الفيضان الخالية من البهائم والكلاب ورجال العزبة
وأولادها ونسوانها .. على طريق الجازورين .. سار حسان ونجيه
ولطفى المغنى .. شبيب نجيه يمتص تراب السكة صوت طرقاته
الذي كان حرياً بها أن تسرى في الليل إلى مسافات بعيدة .
لطفى يدندن داخل نفسه .. حسان لا يعرف تحديداً ماذا هو
فاعل .. كان قد اتفق مع نجيه على الزواج .. الزواج في ذهنه لم
يرتبط بماذون وبشهود وبعقد وأن تكون نجيه زوجته .. عندما
بدأت أولى الخطوات لم يمانع في تنفيذها ، وأن لم يكن قد صورها
ولو أن نجيه طلبت منه أن يصحبها إلى المآذون لرفض ، لكنه لم يمانع
في الذهاب إلى المآذون لأنه تنفيذ لاتفاق ارتبط به .. ذلك لا يعنى
أن حسان بلا خيال .. ففي دماغه دائماً صورة ليل الصعيد مقعراً ،
تهز رعوس التخييل فيه نسيمات منحدره من الجبل ، وصوصة
كروان ، وأن لم يعرف اسمه ، وقد ينزل إلى مدينة أسيوط في
وضح النهار . لا لأنه لا يتصور أن المخبرين قد يلاحقونه ، ولكن
لأن الرجال في الجبل اختاروه أن ينزل المدينة لزوم العمل .
.. في أول الطريق احست نجيه ، وهى لا تكف عن الكلام ،
أسف ، ليس لأن بختها قد خاب مع زوجها صالح ، بالتحديد لأن
اللون الأحمر على خديها من ورق التفنة ، غطاه ظلام الليل مع الكحل
الأسود الذي أطبقت بجفنى عينيها على مروده .. خفف من أسف
وحزن نجيه ، أنها هناك في حجرة المآذون ، وقد وضع اللبنة نمره
عشرة أمامه على الطرايزة ، وسألها عن اسمها ، وطلب منها ترديد
الكلمات التي تعرفها ، وطلب منها الختم .. هناك ستبدى حياة
شديداً ، وتدو لكل العيون حمرة الخدين وسواد العيون وخصلة
الشعر التي مسحبتها من تحت المنديل المطرز بالترمز الزجاجى ،
وشغلت جزءاً من جبهتها ونزات على أذنها .. دلالة أنها ليست بنتاً
صغيرة .. بل امرأة تعرف أن تنتف بتراب القرن المحترق شميرات

الجهة والوجه والساقين .. وعموما تعترف كل اغانين المرأة ..
 : امام الماذون .. كان لطفي هو المتحدث .. ففي داخل لطفي
 وهو معنى العزبة ، انه ثمة علاقة قد لا تكون واضحة ولكنها موجودة ،
 بين مهنته كرجل يغنى فى الافراح وبين مهنة الماذون كرجل لولاه ماتقوم
 هذه الافراح .. هذه العلاقة ليست وحدها مايدفع لطفي على ان
 يتقدم الى الماذون ليساومه على اجر عقد القران .. رباط قسوى
 او لنقل صداقة بين لطفي وحسان .. لطفي الغلبان .. هو الرجل
 الوحيد فى العزبة الذى لا يحمل احتراما حقيقيا لجابر افندى ،
 وبسببه بينه وبين حسان .. البغل ، ويقسم بالطلاق ، وهو لم
 يتزوج بعد ، ان لا فرق بين جابر افندى وبين الحمار غير ان الحقيقة
 وراء ذلك ، ان لطفي لاينسى ان جابر افندى طلب منه ان يشتري
 قسا ويستغل شغلة يأكل منها عيشا بدل الكلام الفارغ الذى لايفيد ،
 وهدده مرة بعمل محضر تشرد .

.. كما توقعت نجيه تماما كل شيء حدث .. حجرة الماذون مطلية
 بالجير الذى كان ابيض وصار اسود واصفر من الدخان .. النقوش
 على الجدران .. سفينة كبيرة .. مقام كبير .. الماذون حج الى بيت
 الله .. قطع الجير التى تساقطت من طلاء الجدران شكلت هى الاخرى
 نقوشا اكثر افصاحا عن نفسها .. اللبنة نمره عشرة .. الطرابيزة ..
 ابن الماذون حضر ليكون الشاهد الثانى .. الماذون لم يكن يقصد
 سؤاله بذاته حين سأل نجيه عن سنّها .. شجعت نجيه لا لانها
 تستكثر ان تكون صغيرة الى الدرجة التى لا يفتن فيها الماذون الى
 باوغها سن الشرع .. لان هذا الماذون بالذات سبق ان عقد زواجها
 على صالح .. مرت بيدها على خصلة الشعر المسحوبة من وسط
 منبت راسها وافضت الى الماذون بما ظنته واحدا من معلوماته الاكيدة
 .. سيدها الشيخ سبق ان زوجها من صالح .. ترك الماذون الريشة
 .. عاتبها على انها لم تخبره من الاول ولم تقدم له قسيمة الطلاق ..
 الماذون لم يصدق ان صالحا لم يطلقها .. صالح منذ ثلاث سنوات
 سحب بهائم جابر افندى مع باقى الشفالة وعادت البهائم والشفالة
 ولم بعد صالح .. انتظرتة ولم يعد .. نجيه كادت ان تخصص جزءا
 من الجلسة لليكاء .. نظرة الى حسان والى المناسبة منعته .. كلمات
 الماذون قاطعة فى عدم جواز اتمام العقد الا بعد استخراج قسيمة

طلاق من المحكمة .. اضاف الماذون ان ذلك الزواج لو كان تم لكان زنا لا زواجا .

.. حسان لم يفهم المسألة تماما .. كاد أن يلوم الماذون ، لولا ان قاعدة منعه ، أن هذه هي مهنة الماذون ، وهو أخبر بشئون مهنته .. نجيه أنكرت موقف الماذون .. امرأة صادفتها في صحن الطبخ حبة كوسة مرة .. لا تستغرب أن تكون هناك حبة كوسة مرة .. تعرف أنها تستطيع أن تفرز هذه الحبة المرة قبل أن تضيفها الى الطبخ .. تقابلها الحبة المرة فتتكر وجودها .. بالنسبة للماذون نفسه ، فلم تقطع بجديته في الامتناع عن عقد الزواج ، وعندها يقين انه لو قبض أكثر أو طلب منه جابر افندى لسيتم الزواج .. تعرف ان الماذون يقينا يحتفظ في مخه بحل ما لكنه لا يبيديه للفقراء .. بعيدا في أعماقها هي ، كانت المنطقة بين هذا الزواج والزنا غير بيئة الحدود .. الزواج يسبقه كتب كتاب ، وهامى تود أن تكتب الكتاب .. كلما ارتفعت من داخل أعماقها اشتبهت بالحدود حتى تصل الى أن ذلك ممنوع ، ولكنه لبس مستحيلا ، ولو حضر جابر افندى فاعتقد حتما سيعتد .

.. في طريق العودة لم يصرح لطفى لصديقه ولابنة عزبه أن ذلك فلا حرام مالم يحضر صالح وبطلق نجيه .. لكن أين صالح .. حرام أن تبة نجيه لا زواج .. بقاؤها بلا زواج وهي شابة سيدفعها الى الوقوع في المحذور .. لطفى كان صاحب فكرة عقد القران عند ماذون القرية المجاورة .. فالسيئات التي ينحملها أهل العزبة .. يدفنون موتاهم في مقابر القرية .. يشتررون السكر والجاز والزيت والشاي والمسل من دكاكين القرية .. يعقدون زواجهم ويفضوه عند ماذونها .. هذه السيئات افسحت أن يقترح لطفى عقد القران ، في الليلة التالية ، عند ماذون قرية أخرى يعرفها ، وغنى فيها ليال بضولها .. المطلوب فقط انكار سبق زواج نجيه .. طلب من نجيه ألا تضع الاحمر والاسود ، وان ترفع القصوص من فوق جبهتها ، حتى يكون زواجا من اول وجديد .

.. لان الزواج لم يتم بعد ، فقد أوصل حسان وصديقه .. نجيه ، الى دارها واتجهها الى دار لطفى .. دخنا المسل والحشيش دندنا مع رجال القعدة .. أنشد لطفى بالقاء عاد منغم .. رده معه ووراءه رجال القعدة .

أنا زارع شطين باميه
عند الساقية البحرية
كان عندي حمامه عرجه
نفدت من العسكريه ..

.. الرجال ينفجرون ضاحكين .. لطفى عنده خزين من المواويل
الحمراء .. يحفظ كثيرا من النكات والنوادر والحدايت ، وليس
هنالك من يفلته اذا دخل معه فى قافية .. وفوق ذلك عنده كثير من
الكلام الهلس .

.. فى الليلة التالية تم عقد زواج حسان ونجيه .. دس حسان
صورة عقد الزواج فى جيب صدرته مع نصف قرش حشيش ..
لطفى كان قد اقترح ان يقيم لصديقه .. ليلة عرس ، يغنى فيها ،
حتى الصباح .. يدعو اليها زملاءه من مغنى القرى المجاورة .. تدور
انجوزه على الرجال .. يحرقون المعسل والحشيش .. يصهلون ..
لطفى وان بك حسان غريبا ، لا يراه اقل من اى واحد من اهل العزبة
الخرفان الذهبى يؤنس ليااليهم .. نجية وحسان اعترضا على اقتراح
لطفى .. خبط حسان على كتفى لطفى ، مقدرا فيه الرجولة
والشهامه .. متزحزا قليلا عن فكرته من ان الرجال فى الصعيد ،
اما وجه بحرى فحمر شغل .

الظلمة والسكون فى السماء وفوق العزبة .. المدقات التى تصل
انعزبة بما حواها من غيطان وقرى وكفور لا يتعرفها الا ابناء العزبة ..
معطف عم الشحات من فوق مصطبه فى اول العزبة .. اعترض
القادمين .. نجية قدمت وجبة عشاء خفيفة لزوجها وصديقه .. اُرز
وبيض مسلووق محمر فى الزيت .. احتفظت بذكر البط وحلة المكرونة
حتى تخلو مع حسان .. اللعبة العافورى التى اسهمت شعلتها فى
صنع طبقة الباب فى سقف الحجرة ، اتخذت مكانها تحت المصطبة
.. لبة جاز نمرة خمسة تضىء الحجرة .. هانم مزاحة بعيدا عن
المصطبة .. نجية فرحة مبتهجة .. قدمت اكواب الشاي .. مال
لطفى على اذن حسان .. ضحك لطفى وهو يستأذن من نجيه فى ان
يصحب حسان ليدخنا معا كرسى معسل .. عرفت نجيه ان «لطفى»
سيقدم تحيته الى صديقه لا اقل من نصف قرش حشيش غير قمحات
الافيون ، نبوت نجية على حسان ان يعود سريعا .. هى تخاف
الرحدة .. اخرجت نجيه حلة المكرونة فوقها ذكر البط استعدادا
لتسخينها فور عودة حسان .. اخرجت ورقة التفطة الحمراء ،

دعكت بها خديها .. المرود دبسة داخل زجاجة الكحل .. طبقت جفنيها .. سحبت المرود مارا بالرموش .. ادمعت عينها . تظلم الى قطعة المرأة . دخلت مناخيرها رائحة زبل الارانب من الحجر تح المصطبة .. قررت ان تتخلص من الخروف الصغير المربوط فى البحرارية بان تنقله مع بهائم جابر افندى .. سمعت طرقا على الباب .. انتفضت مسروعة تلهث .. حسان لم يكن قد عاد بعد .. وقفت امام الباب .. الحارة فيها سكون .. دور الفلاحين مغلقة .. خافت على حسان من كلب اسود عضاض ينام دائما فى اول الحارة .. الجاز فى اللمة الزجاجية قد انتصف .. همت ان تفف امام الباب لتعرب لحسان عن زعلها لتأخره ، وكذلك عن اعزازها أى حبها .. اكتشمت فجأة انها وحسان غريبان .. انهما معا قطعا من شجرة .. لامت لطفى ان حجز حسان كل هذه المدة الطويلة .. الا يعرف لطفى ان حسان قد تزوج وانه اصبح زوجا وان له امرأة وان ليس من حقه ان يتصرف فى قته على وهواه .. همت ان تخطف نفسها الى دار لطفى .. ليس عيبا لو فعلت ، فحسان زوجها ومن حقها ان تسأل عليه ، وان نقلت لغيابه ، بل وان تحاسبه .. نباح كلاب داخل العزبة فوق الاسطح وقى الحارات وحول العزبة .. حمار ينهق بعيدا فى طرف العزبة الثانى .. عم الشحات اخذته سنة من النوم .. عم الشحات لا يفرق بين السنة من النوم وبين الفطيط .. المعطف او البلطو او السكو يؤدى واجبه التاريخى حول جسم عم الشحات .. يعترض القادمين ويطلب سيجارة من المعارف .. الحاجة فطوم تنقلب على جنبها الايمن ، جابر افندى خارج الدار .. هو فى قعدة يفك عن نفسه .. جابر افندى نفسه انتهى من تدخين المعسل مع الحشيش فى طريق عودته خرج على المسجد بين ان يصلى او يقضى ضرورة .. على ميضة الجامع جلس يتقيا ديكا وصحن فتة من داخل كرشه .. نجبة زاد ميلها الى ان تنده حسان من منزل لطفى .. تذرعت بالصبر .. بالحكمة التى توصى الانسان بطول البال .. جلست على المصطبة نستمع ، بصبر فارغ ، الى كلاب تنبح والى اقدام تدق على ارض الحارة .

حسان خرج من عند لطفى بعد ان حرقا معا لا اقل من عشرين كرسي معسل فى وسطه تعميرات الحشيش .. لطفى دس فى يده قمحة افيون نزوم الليلة .. على باب الدار حضن حسان صديقه لطفى وقبله .. حسان اتخذ طريقه مصمما دون ان يعرف او يدري لم .. بعيدا .. بعيدا عن عزبة جابر افندى ..

طرح المجد

... سطح المسجد الحجري ممتد امام عينيه امتارا بدت له
فسيحة .. هبات ربيع موحية تنسلل الى الجسد النحيل ، تهزه
فى غفلة من صاحبه .. وتلطم شعيرات الشارب الاصفر الناعم ..
فتلات جلبابه البغثة المنحولة ، لستر العورة .. عورة الجسد المطوط
بلا اكتاف تتناسب وطوله .. رائحة المساء الرطب عملاً خياشيمه ..
جبهته الكنزة فوق عينيه الثقبين تتنافر بشدة مع قدميه الطويلتين
فى خف شقافى الجلد والنعل وبلا رباط .. يدور فى خطو زمنى
مستعرضا سطح المسجد .. ومظلا على القرية .. ذبيحته الليلة
تحديدا .. تلتقط اذناه الحركة الخسنة الصاعدة من دورة مياه
المسجد حيث يتراقد اولاد الفلاحين امام الميضة ، للاغتسال وتبادل
الاخبار واتفاقات العمل والشتائم والسب والاستهزاء بكل الذى لاقوه
فى يوم بدأ منذ فجر بعيد ..

... نهاره هو لم ينته بعد .. مغربه تمسك بشمس خيوط -
كساربه - صفراء تختفى وراء سحابات شتوية داكنة ..
... قالت له بتوفز : استرح .. الايام - تقصد الليالى - كثيرة
آتية ..

... من بين جفنيه بيضاء الجلد ، مصفرة ، انطلق سهمان من
بصر .. تغليان سقف الحجرة بضوء اللبة الجاز نمرة خمسة ،
وبالصور القديمة المستقرة وراء خلايا المخ وداخلها .. أعواد الفاب
المصفرة والسودة ، المتساندة على فروع خشب قديمة ، والنائمة ،
خلية البال ، لا تحمل ذكرى واحدة لايام عديدة قضتها على شاطئ
الترعة ، خضراء ، موتقة ، متفصدة بالحيوية والنماء ، تمانين
أوراقها مع الريح وتستقبل ضوء القمر ، وتغفو مع ليل القسرية
الموحش العارى الكئيب ، فوقها - فوق الاوراق الفضة - تتصنع
تقط الندى الصافية البلورية الماسية مع شعاعات شمس صباح باكر
طفلى برىء .. يجمعها بحر ص دينى ، حفيد خفيف مرح حافى القدمين

يمسك في ايمان مطلق وثيق ، بصر جده عجوز ، تترقب عودته في قاعة رطبه مظلمة ، تكافح باصرار ، الا تنفل ضوء عينيها الى عكاز توت .. تلمس به ، لا ببصيرتها ، موقع قدميها اللتين يجب ان تدبا دائما ..

... فتيلة اللبنة تسحب بقايا الجاز وقد احمر جزء من طرفها ..
ايدانا ان الجاز - ولا غيره مصدر للضوء داخل حجرات البناء الضريحي التي بلا عدد - موشك على النفاد .. وان الفتيلة ، موشكة ان تعطي من ذات نفسها ، وان الظلام القدرى موشك ان ينهال « .. بدماغه ، انستق » من باب الاوضه ، كما يحرص على تسمية البناء الربع المسقوف ، الذي يضمهما سويا ، والتي تصر الجاموسة ، ليست تصر .. بالتحديد لاستطيع الا ان تسميه .. بحكم وراثت فجزرية التاريخ .. قاعة .. لله وحده كل ما يبدله من عذاب محاولة تعليم الجاموسة .. كيف ترمع .. تقتحم رأسه .. وسط زحمة افكار ملتبه محاولة عد حجرات السراية .. تهب ظلمة على رأسه تطمس كل شيء .. ستائر خيوط العنكبوت الكثيفة . أسلم نفسه الى يامن جديد .. الحجرات بلا عدد ، لكنها كتل ظلالية عنكبوتية موحنة .. البناء كله في سبات تاريخي يبدو بلا نهاية .. حجرة واحدة في ركن منها حصير قديم .. في ركن ثان صفيحة دقيقت تمشش اسفلها كائنات سوسية . مشنة عيش .. زبر احمر جاء مع الجاموسة ليلة دخلتها .. عريانة الجسد ممددة الى جواره . على ان دماغه ، بحكم دوامات التراب السبخية ، التي تلفه عاصفة ، يقيم السراية الغافية من تصورات خارج احجار الجدران المهرئة .. السقف .. اعواد الغاب الناشفة المتعامدة مع عروق الخشب السنطى .. يراها الواحاملساء مساوية الطلاء الزيتي مزدانة .. وفي صحوه ضمير طارئة .. يسمع نفسه .. تلك كانت ايام .. كانت الدنيا .. دنبا .. لم يعيشها كما يعيش الرجل مع امراته .. في لقاء لحمي متعاشق صميم .. انتقلت الايام .. اليه .. عبر رؤى واحلام وتكشفات صوفية قاتلة .. عبر احاديث عجائز الفلاحين .. عبر احجار السراية القائمة لاتزال .. لكنهم .. الملاعين الفلاحين يربطون حديثهم عن السراية بالغاريت .. يؤكدون كاذبين كعادتهم انها سكنى السراية .. وانهم شاهدها وسمعوها داخل السراية .
... ذراعه واهنة ، ممتدة ، او ملقاة .. تحت رأسها .. لم يشعر

بالنميل يسرى فى اعصاب الدراع .

أحسن بدراع ملقاة .. محصورة ومحاصرة بين راسها وبين المخدة .
كان قد اصر على ان يكون فى جهاز الدخلة شرط اساسى ، لم يستطع
اصهاره من الفلاحين .. ان يفهموه . عرضوا شراء حمل صوف
للغطاء بدل اللحاف ، عددوا اسبابا بدت لهم .. وحدهم .. معقولة
.. فى ذهنه .. ماذا يكون الفرق بينه وبين اصهاره الفلاحين اذا لم يكن
خطاؤه لحافا .. فى سريره انه لا فائدة من تعداد مزايى اللحاف ..
المسألة انهم لم يدخلوا لحافا ، بيوتهم ، وعلى العروسة ان تفهم ،
او على الجاموسة ان تتعلم كيف ترمح .. عاش اجدادها خسدا
واثابعا فى سراى اجداده .. هذه المرة واحدة من الفلاحين تدخل
السراية زوجة لواحد من سلالة المفنن .. ماكان يجب ان يحدث
ماحدث .. ماكان يجب ان تنزل الى بيوت الفلاحين لتأخذ منها لك
حرمة .. لا بهم ان تكون فقيرا .. اصلك هو الاساس .. أنت ابن
اصول .. رهل ضاعت الاصول فى هذا الزمن الملعون . ملعون ابوه
رجب العجوز .. ردد امامك يوما . اصلك .. وفنك .. الحقيقة
اننى لم افهمه .. لم افهم ماكان يقصده .. غلفها الملعون الخبيث
بكلمات الرحمة .. على ابيك وعلى جدك الكبير .. مسلاعين هؤلاء
الفلاحون الخبيثاء .. اصلك وقتك ..

حكمة جبانة اطلقها فلاح بهيم لا اصل له ..

.. الجاموسة تسحب ساقها .. بحذر محسوب .. هزتها اولا ،
تريد ان تحدد مدى التمسك بها .. حركتها .. يبطئ انجل ساقها
من بين ساقيه .. سقطت ساقه على الحصى .. ما ألمته ساقه قدر
ماغشينه رهبة توقع الخطوة التالية .. فى راسه حطت كل الحجرات
المهجورة المظلمة العنكبوتية - استرح .. الايام - تقصد الليالى -
آتية .. كثيرة ..

.. اللبنة الجاز شدت عينيه .. زجاجتها قرينة .. هنا اضاءت
الكلوبات يوما لا بد .. راسه داخلها يعمل .. يحاول ان يتبين السور
المختلفة الايحاء ، داخل صوتها .. استرح .. ماذا تريد هذه الجاموسة
.. اندار راقدا على ظهره .. بدماعه وحده يحس جسدها الى جواره
.. جسد جنى خرافى .. يخترق قوالب الجدران الحجرية .. ينعتق
خارج بنايات السراية .. ينتشر فى الفضاء البلى الغامض لحظات
آلاف السنين .. الفيضان الواسعة التى لا تبلغ العين مداها .. ثم قد

فى احضانها القنوات والجسور وعلى حوافها اشجار الجميز ونباتات
الحلفاء المدبية والتجيل البساطى ..

.. لكن هذا الجسد بذاته اعتلاه يوما .. متى .. لسكان ذلك
احاديث اخرى كالتى يرددها عجائز الفلاحين حين تجمعهم المصاطب
ومدارات السواقى ومقاعد الطنابير وتراكيب الشواذيف .. كان جدك
الكبير مفتشا .. رجب المعجوز نفسه .. عن ابيه عن جدته يحدث ..
كانت ركوبته حصانا ابيض كالبراق .. يشن .. يرن .. لجسامه
تفعله قطع الفضة التى لا تصدا .. ركابه فضة صادقة .. الحصان
يقوده عبدان اسودان فى لون الغراب .. الطريق مبسوط واسع ..
وراء المفتش يرمح خفراء التفتيش .. عيد .. فلاحون .. الموكب
دائما .. كعرس سماوى .. الشمس ذاتها كلوب يتقدم الموكب ..
امام السراية .. يمسك العبدان بالحصان .. يسرع ثالث كاسرا ظهره
ليصنع من جسمه سلما بين ظهر الحصان والارض .. عبد آخر يظم
القدم من الركاب .. -

... رجب المعجوز يضحك مما حدث لجدته .. يطلق آهة طويلة
.. مبهمة ..

- كانت ايام ياسى توفيق .. لكن بالذمة المحمدية .. كان جدى
يستاهل .. حد ياكل الفول .. عليقة التيران .. لكن اقول لك ياسى
توفيق يمكن كان جمان .. فول يا حسن الختام .. الف لك سيجارة
معلش .. اصلها سجابر فلاحين ..

.. جد رجب المعجوز .. صدر اليه الامر ذات يوم من المفتش
نفسه .. ان يغادر البلاد .. بلاد التفتيش العشرة ..

- هو والجاموسة والعيال وينبى على العمد ومأمور المركز .
- العفو ياسعادة المفتش .. ما عندوش جاموسة ..

- هو .. ومرائه ..

- الرحمة .. يامفتش ..

ذلك كان الجسم القروى الدائم الضالة .. منتصب باستحالة
وصعوبة ضيق نفس .. رجلاه الاماميتان .. ذراعه .. قوسان
مرتجفان بالتسبيح والضراعة .. بينهما وجهه الادمى .. شعيرات
الشارب الازرية الكثيفة المعفرة من الف سنة .. تسد مدخلى منخاريه
وتنزل على فمه .. دغل صغير يطل من خلفه وجه انسان .. رجب
انكلاف ..

- الرحمة .. يامفتش .

الجلابية العبك مربوطة عند الوسط ، بحبل قيل مهترى ..
اللون ناحل اغبش رمادى .. الرقعات تبقع الجلابية .. تحدد معالمها
خيوط غليظة بارزة .. اللون الازرق الذى كان للجلابية ، محقه تناوب
دورات فلكية .. لكن اللون الازرق هو الآخر يقاوم عوامل الفناء ..
لا شيء يقبل ان ينتهى مختارا .. اللون الازرق بين ثنيتى خياطات
الجلابية .. رجب الجدد نفسه لا يذكره .. فقط عندما يفرد ثنيتى
الخيطة ، لياتقط القمل الابيض الرمادى الفاتح كحب السمسم ..
الضوء الضبابى الذى يكافح اليه الزرقاء على انساني عينيه بالكاد
يسمح لرجب ان يتذكر اللون الازرق الذى كان لجلابيه يوم اشتراه
جاهزا من سوق الثلاثاء ..

- ايه ... ده .

- ده رجب .. باسعادة المفتش ..

- ابوه انا رجب الكلاف .. ياسى المفتش ..

- اسكت .. فلاح .. خرسيس .. هانوا الطبلية ..

- الرحمة .. يامفتش

الساقان الاصفران الرفيعان الاسودان .. تتخفى جلدتهما تحت
طبقة من القشف الابيض الباهت .. تغطيهما مسامير سننط سوداء
جافة ، شعر الساقين .. ارتعشتا فى زعر .. الرأس الادمية ملفوفة
- كالتميمة - داخل منديل محلاوى باهت ، ارتعشت .. العنسان
اللتان تفلت منهما القملة السمسمة .. بين ثنيتى خياطة الجلابات
الازرق ، دارتا بحجرة مكتب المفتش واسمة كالجرن .. حيطان
ملساء .. تصاور معاقة على الجدران .. اللون الاصفر بؤطرها ،
ذهب لابد .. كراسى مرصوفة .. زغب كثيف فى لون البلع الرامخ
نظيها .. قطيفة لابد .. ناظر التفتيش نفسه واقف زنهـار ..
الباشكاتب الهائل المقام يدخل منحوبا .. رجب اجال عينيه .. غلب
العمش .. الصر داخلهما .. المفتش هالة من النور .. لم يحاول
رجب ان يتبين المفتش .. يسمع صوته .. ليس من اللائق ان يراه
بالعين .. يرى بالعقل وحده .. المفتش شيء ابيض فى ابيض ..
اسقط رجب بصره على قدميه هو ، دوار خفيف الم بدماعه .. ركب
قادر على كل شيء .. قدماه متسمرتان على الارض .. ليس على
الارض .. تفوصان داخل الشيء الذى يطفى ارضية المكتب .. شيء

طرى ساخن قليلا .. رجب لم يحس الطراوة والدفع بأعصاب باطن قدميه .. بطن قدميه ترقد فى شقوقها سيور من طين ناشف ، انقل اليه بالمرأاة من جدود لا يذكرهم .. بعينيه المغبشتين أحس الدفع الناعم والطراوة ، ما اسم هذا الشيء الذى يفرش ارضية مكنب المفنش .. العلم بحرة واسع يارجب .. يموت الانسان لا يتعلم كل شيء ..

— هاتوا الضيقة .. تأديب له وعبرة لغيره من انكلافين .. ماذا تفعل يارجب .. ثم يفكر حتى فى ان يتطلع الى السماء .. ملعون حقان القول الذى اقتطعته من عليفة النور .. الشيطان شاطر .. لكل ذنب عقوبة ..

شيخ غفر التفتيش بجلاله سحب رجب .. امام السراية .. فلاحون .. فقراء .. عبيد .. كلافون .. سباسب .. خيول .. صعايدة .. الى جوار رجب نصبوا الواح خشب سمكة .. حبال كتانية بيضاء .. واحد من العبيد تقدم بالشاكوش والمسامر .. انعمون كلها انتطلع .. رجب ملق بعصره الى اسفل .. تصعد الى عيشه صخرة التراب المخلل برش الماء .. نملة حمراء صغيرة تجر شيئا ابيض فى قدر حجمها مرأين .. تدخل داخل تجويف نطس قامة اليمنى .. برفع عينيه فجأة .. قد يكون المفنش .. هبط .. — استرح .. الابام .. تقصد اللباني .. كثيرة .. آتية ..

.. راحة كف — خروجاً من لحظة النظار مبطوطة كخلة لا تبلغ العين آخرها .. يمر بيده على صدرها .. تقف على نهدها .. نام على جنبه .. يحاول ان يتحكم فى تصورات .. ان ينسى مساذاً حدث للديا .. المأمونة .. ترقد الى جواره ، كأنها ليست زوجته على سنة الله ورسوله .. واجبا عليه ان ياتبها .. جبهته ملتفة .. بترقبه برصدها .. يحاول ان يفسر كل حركة من حركات الجسد الخسرافى الذى يلبد هو الى جواره .. كان جسدها قد تحول الى سراية مقلعة الفتحات .. بلف حولها فار مبيضة وبدور .. ضمها اليه .. انظر ان تفعل شيئاً .. ان تزيح يده .. ان تنفخ بنفاذ صرا ان تطفطق كالنار .. بكلماتها القريبة .. انتظر ان تسمعها تعيد : استرح .. الابام .. تقصد اللباني .. كثيرة آتية .. لو انها فعلت لاعطاء ظهره واسلم بنفسه الى رقاد .. لم تفعل .. كان قد ايقظها .. التفتت اليه .. شمته اليها .. انطلق ذهنه .. محاولاً ان يفسر التفسير فى سلوكها ..

احس جسديا .. عريانا ساخنا .. يضغط انفاسه .. ملعونة كاهلها ..
.. هذه الجاموسة .. تريد ان تقضى وطرها .. عليه ان يقول لا ..
.. هذه لحظته هو .. لن يخضع .. من حق الرجل ان يكون رجلا ولو
لحظة واحدة في حياته .. ان يقول لا .. الملعونة تريد ان تفترس ..
ان تنبش .. جاموسة كاهلها الفلاحين .

— الف لك سيجارة ياسى توفيق .. ماتعيلش الهم .. خير ربنا
كثير .
— السراية دى ياسى توفيق .. ياما شافت عز .. لكن الدوام
لله . .

— يا اولاد الحرام .. منضحكوش عليه .. داسى توفيق .. ابن
ناس .. لكن انام .. كان جده البعيد يقول للشيء كن فيكون ..
.. هي تجذبه من تهويماته .. تحتضنه .. كف يدها الخشنة تمر
على قناة ظهره .. بالاطراف الداخلية لاصابعها الخنصر والبنصر
والوسطى والسبابة .. تضغط .. الظلام يزحف داخل الحجرة ..
سحلية تمر على الجدار حول اللبنة .. الفئران حركتها لا تتوقف على
السقف .. على الجدران .. فوق الحصيرة نفسها .. يحس ان شفتي
زوجته مزومتان .. حركة دخول الهواء وخروجه من فتحتى انفه ،
مسموعة : شيء كالفحيح .. هو الان سيد .. سيد بارادته او برغمه
لا يهم .. عليه الا يعطى .. الا يعطى .. الا يتخلى عن عجزه .. عن
قوته .. هذه لحظته هو .. ان تزحف الدنيا على ظهرها اليه .. ان
تطلبه .. ان تمنع .. ماذا كان يفعل الجد فى الليل .. لكن انت الذى
بدات يا توفيق .. معها الحق .. اى حق .. الحق الوحيد ان تحرق
هذه الملعونة .. ان تشعل فى جسدها حريقا .. حق للمرأة ..
يا توفيق .. ان تحصل دائما على رجل .. كلام فارغ .. رجل من
وامها .. انظر نور الصباح فى طرقة كقصعة البرغوث .. لا شيء
يعوت فى سمعت ..

— توفيق .. توفيق .. هتنام ..
لم يدر بم يجب ، سينام ام لا .. هؤلاء الفلاحون الخبيثاء .. لهم
حديثهم .. بلونون الكلام . تساله ام تستحنه هذه الجاموسة ..
تقذف بسؤال لا جواب عليه توازيا — معا — كالخطين .. ركز ذهنه
بهدف ان يتخلى عن السرحان .. انه هو السيد .. عليه ان يفعل
مايفعله واحد من سلالة المفتش .. كان الجد رجلا لابد .. يطلب الجارة

بالاسم .. الجوارى والحريم تملأ السراية . الجسد كان يقوم بما
 تفرضه عليه فحولته . ثم ينفض يده من المهمة بعد مشواره .. عليك
 يا توفيق ان تحبى امجاد السلالة .. يا جدى .. سليلك توفيق ..
 بلا تفتيش .. بلا نظار وقف .. بلا عمد .. بلا خفاء .. بلا عبيد ..
 يحبى امجادك .. ضبط نفسه ايضا ، وهو يهوم بعيدا عن الرسالة ..
 احتضنها بلا سابق انذار .. ضغط بذر اعياه .. انتبه الى ان دماغه
 وحده هو الذى يعمل .. جسده فى واد آخر .. جسده لم يساير
 فكره .. بالتحدث فكره وحده قرر الاستجابة .. فكره وحده
 ترحل عن موقف الامتناع .. او ان جسد توفيق اكثر دراية بتوفيق
 منه هو ذاته .. تحددت معركة توفيق .. زحزحة جسده الى الموقف
 الجدي .. احياء امجاد المفتش .. خيل اليه ان جسده لسكان
 آخر .. تشم شعرها كلازمة من لزوميات الرسالة .. آثار جاز ..
 كاد فكره ان ينضم الى جسده وبرفضها .. سبق ان امرها الا
 تستعمل الحاز فى تمشيط شعرها .. كنساء الفلاحين .. زوجة
 توفيق سليل المفتش ليست كنساء الفلاحين وان انتسبت اليهم امرها
 الى الله .. تجمع بيض الفراخ لشراء حق فازلين بقرشين من بائع
 طواف .. انعم بأنفه عن شعرها .. دك أنفه فى جسدها .. تملكته
 الرغبة ان يسير مع الجاموسة كما كان الجد يسير مع المهرة الى نهاية
 المشوار .. الاذرع الاربعة تضم الخطين المتوازيين .. لكن شيئا
 فيه هو بقى هامدا .. رافضا .. منزويا .. منكشرا على ذكريات
 رملية يفوس فيها لا يبدو منه شيء .. الضراعة اليه منه هو ومنه
 هى .. الذكريات الرملية الناعمة المنهالة لا تنزاح .. الذى لا يسمى
 راقد تحت الرمال التاريخية .. العرق الساخن ينسال باردا ..
 يختلط مع الصلوات المرقوعة لاله لا يستجيب .. اصم .. اخرس ..
 اكتم .. طفل .. لا مبال لا يدري ما يدور حوله .. لا يدري دوره
 التاريخي الخالد .. يلفه شيء كالشلل .. لكنه ليس شللا .. توفيق
 متوسلا .. متسولا .. هذه لحظتك يا صاحب المقام .. لا تدخل توفيق ..
 توفيق سليل المفتش .. المفتش الذى حكم عشرة بلاد .. ارضها
 وعمدها وناسها .. لا يمر فوق قيطانها غراب دون اذن منه .. فى
 سرابته الحريم والعبيد .. يطرد ويجلد ويكوى النار .. يا صاحب
 المقام لا بهم ان كانت المركوبة جاموسة وليست مهرة .. يا صاحب
 المقام انك آخر الامر منى .. منى انا .. فيك مافى من امجاد ..

انك انت انا .. لا تغرب انت الآخر ..

.. أزاحته بنفاد صير .. عاود محاولة احتضانها .. بيدها مرت
على موضع الضرع منه لو انه بقرة .. صفحة ملساء مستوية من غير
سوء .. تعمدت أن تضبطه دون كلام .. اشهد له على نفسه .. أعطته
ظهرها .. حاول أن يستديرها .. ثقيلة .. ثابتة .. كالنمى على
حافة يوم .. ينقضي ..
- نظيرة .. نظيرة ..

- استرح .. الأيام .. تقصد الليالى .. آتية كثيرة ..
.. شدها بعنف .. تقارزا اظافره الصفراء الجافة في جلدها ..
امسكت بيده .. بيده الثانية فصل جديدة من شعرها وشدها ..
بقرف امسكت يده الثانية .. احسها قوية .. القى برأسه على
جسدها وبأسنانه كز .. انتصبت نافضة جسدها فسقط - كبعض
التراب - عنها .. ألقى بطوله عليها .. انحرفت قليلا فسقط على
الحصيرة .. ساكتا ..

- جاموسة ..

- مش ه .. اكلم ..

- زى اهك الفلاحين الهام ..

- احسن منك .. ومن اهك ..

- جاموسة .. بنت جاموس ..

- احسن منك .. ومن اهك ..

... من بين الجفون .. بيضاء الجلد مصفرة .. طاش سهمان من
بصر .. الظلام تطفح به الحجرة .. احس الظلام ثقيلًا طينياً يحيط
عليه .. بسد منافذ أنفاسه .. احس الحصيرة تحت جنبه .. سقف
الحجرة .. كان الواحاً زيتية سماوية برسوم الملائكة .. ما كان امامه
الا ان يبيعه .. ليس بالتحديد ليتزوج الجاموسة .. ليشتري كيلا
الذرة .. الشايك .. ماذا كان يفعل .. لو لم يبيعه لسرقها
الفلاحون .. البراغيت تزحف كطواير النمل على جسده .. الحجرة
تضيق .. جذرائها تقترب .. تكاد تنطبق .. سقفها يهبط .. أجزاء
كتلية من الظلام تنتقل أمام عينيه داخل الحجرة .. لفحات من هواء
بارد اسود .. تهوم على وجهه .. دعك عينيه .. انطلاقات مضببة
لامعة تسبح في الفراغ الاسود .. اصوات انهيارات تطرق حسه ..
كبروق الرعد التى تصاحب نوبات الشتاء المفرق .. رفس برجليه ..

قعد القرفصاء على المخدة .. سحب اللحاف .. القاه على راسه كخيمة
بجتمى بها ..

- ألف لك سيجارة ياسى توفيق .. ولو انها مش قد المقام ..
- يا اولاد الحرام .. دا .. سى توفيق .. ابن ناس .. كانت
السراية دى زى عش النحل .. الدوام لله ..

- قسمة نشوف بعض ثانى ياسى توفيق .. بعد ماحضرة المفتش
الله برحمه .. طرد جدى رجب .. ابويا رجع البلد ثانى .. ه ..
يعمل ايه .. مالوش حتة غيرها دا ابوه وابو ابوه مدفونين هنا .. تعرف
ياسى توفيق بالمناسبة .. لامؤاخدة .. الله برحمه المفتش الكبير ..
ماكنش من .. ماكنش من بلدنا .. اباهتنا كانوا بيقلوا كده ..
- ع النسب ياشاطر .. ياخى مين الى .. دالك

كانت الافنية ليلة الدخلة .. احس الاهانة ليلتها .. ان يناسب
الفلاحين ان تغنى له نسوانهم .. يحسبوا نسبهم فخراً .. كان على
حق ان رفض الزفة .. ان يسير الى جوار العروسة حول البلد ..
ابن الاصول يا بهائم .. ليس ملك نفسه .. جدى ماكان يقبل ان يزف
كذلك

.. اصوات هامسة يسمعاها فى جنبات الحجرة .. هسيس اللحاف
ينزلق من على راسه .. انزلق اللحاف ام شده عفريت .. هبة
هواء بارد تفتح فمها .. داخل الغم اسود مظلم كخارجه .. العفارت
التي رآها الفلاحون .. البهايم لا يتحدثون عن السراية الا وبحكون
عن العفارت .. عفارت تتخفى فى الاشكال والخلق التي ترددها ..
يخصون .. واحدة .. لا يحددون عفرتنا او عفرتة .. يتفقون على
انها تتخلق فى شكل امرأة عجوز .. متشحة بالسواد الدامس ..
امام الجبة المبحورة من السراية .. ترسل شعرها طويلا .. ينسدل
على جسدها كله .. لا تكف عن تمشيطة .. عينيها - من وراء
الشعر - تبخ شرار ..

العفارت تلف السراية .. سحالى تزحف الى جانب القفزات
الفجائية .. فتران ام عفارت ..

.. اطلق صرخة .. فى حقيقتها آهة .. انه لم يسمعاها احد
سواه .. حتى الجدران الحجرية .. جدران السراية .. لم يصلها
الصوت .. او ان الاحجار - هي الاخرى - احياناً تؤدي صلاة
الصمت فى الجنائزات المهيبة .. وتشارك الشمس فى تشيع ليل
طويل .. ليتدور الدورة ..

.. سطح المسجد الحجري ممتد امام عينيه امتسارا بدت له
فسحة .. بقدميه داخل الخف الشقافي بالجلد والنعل ، يدور فوق
سطح المسجد .. مطلا على القرية .. ذبيحته الليلة تحديدا ..
نهاره هو لم ينته بعد .. مغربه تمسك بشمس خيوط صفراء ..
تختفي وراء سحبات شتوية داكنة ..

.. من بين الجفون .. بيضاء الجلد مصفرة .. ينطلق سهمان
من بصر .. سطوح دور الفلاحين .. متلاصقة .. كل سطح يسلم
للثاني .. لا حاجز سوى أطواف الجلة الناشفة .. عيدان قش اللدة
حطب القطن .. اكوام الدريس والتبن .. تحاوز ببصره السطوح ..
اشجار الكافير والصفصاف والتوت والجميز .. جماعات ابي قردان
ظائفة .. غيطان واسعة تمتد مع بصره حتى تلتقي بالسماء .. هذه
الغيطان كلها حكمها المنش .. وقف ببصره عند السراية .. اندار
عما في غير مودة .. تلفت يبحث بين سطوح الفلاحين .. هذا هو
سطح ابي العينين زوج نظيرة .. نظيرة لا تحرك بين صدره ثامه برغوث
عادت تمشط شعرها بالجاز .. ابو العينين من وامها وهي من وامه
كان لابد لنظيرة ان تتزوج .. تقدم ابو العينين .. اولاد الفلاحين
تتزاخمون حول حنفيات دورة المياه .. ظباط وعراك وشنائم ...
بهائم كاحدادهم .. لن يكف عن محاولة منعهم من غسل أرجلهم من
حنفيات المسجد .. المسجد للصلاة وحدها .. عندهم الترعة
يقتسلون في مياهها مع الجاموس والعجول والبقر .. اسمه يتردد
بين الاولاد المتجمهرين حول حنفيات دورة المياه ..

- ياشيخ توفيق .. ياشيخ توفيق ..

- وله الشيخ توفيق نازل لف على سطح الجامع .. مش عاوز ،

بدن المغرب ..

- يا مغفل أصله نسي العمة ..

- هو .. مش عاوز يجوز .. تاني ..

- نظيرة .. توبته ..

- نان الكلب .. م تفكر نيش بالحرمة دي ..

- ه .. تعمل .. راجل ..

- على الطلاق من دراغي انت طور .. نظيرة .. يابنى .. مهرة

.. بس ياخسارة عايزة خيال ..
 - البركة فى ابو العينين .. غفير حكومة قد الدنيا ..
 - اللى مايعرفش يقول عتس ..
 - يا بهائم .. اتتو فى بيت ربنا ..
 - اسكت انت بادف ..
 - يا اخى سيبك منه .. اصله .. حمار شغل ..
 - اسمع .. ماناخذ الطور ده .. تسقيه نفسين حشيش .. ثور
 دماغه شوية ..
 - يابنى على الحرام .. ده بمكن بلد .. ليخليها ليلة قطران ..
 لو اسطل يقول ودونى الفيط اعزق ..
 - مساء الانس .. يا شيخ توفيق .. يابن نظيرة ..
 - يابن الكلب .. م تفكر نيش بالحرمة دى .. احسن على الحرام
 دماغى يدوخ ..
 - امشوا .. ملعون ابوكو .. هو هنا محششة .. يا اولاد الكلب
 - خش ياراجل .. جوه الجامع .. احترم نفسك ..
 - يا اولاد الكلب .. م كله جامع ..
 - ياراجل انت كبير .. احترم نفسك .. دى اسمها .. دورة
 فيه .. فاهم .. دورة فيه .. نتف ونتف ونشخ فيها كمان ..
 - يا اخى سيبك منه .. الناس لما بتكبر عقلها بيخرف ..
 - يا شيخ توفيق .. يا شيخ توفيق المغرب وجب .. ادن يا شيخ
 كفت ..
 - شخ الكلب فى حلقك وحلق ابوكو فلاحين بهائم صحيح ورحمة
 جدى .. ماني مدن ..
 بهدوء توسط واحد من الفلاحين سلم الجامع وردد كلمات الاذان ..
 توفيق ان يؤذن مغرب هذا اليوم .. ضاع التفتيش ببلاده العشرة ..
 لكنك با توفيق مازال حيا .. لا تسنسلم .. الليلة ليلاك .. اضربهم
 ضربتك الاخيرة .. الفلاحين الكفرة .. يريدون ان يكسروا الدرجات
 اتنى خلقها الله .. القرية سطح واحد ساكت .. ليل الشتاء الماتم ..
 السكوت يحط على كل شىء .. على القبطان .. دورة المياه ساكنة ..
 انصرفت الجحوش الراقصة .. يقف لحظة تأمل .. من بعيد ..
 انشقت شعلة لهب خافتة .. من السراية ذاتها .. اللهب يزحف على
 الاعشاش القش اطواف الجله التى زرعها الفلاحون حول اسوار السراية ..

النار تمتد الى السطوح .. فنى الدرة والارز بشنمل .. النار تنقل من سطح الى سطح .. الحطب وفروع الاشجار الجافة الملقاة على السطوح تطلق بالشور المنطاب .. حوائط الجلة الناشفة .. الدريس .. اكوام الدرة داخل اغلفتها .. النار تنفذ الى داخل البيوت .. تحرق السطوح .. النار داخل الزرابى تشوى الجاموس والبقر والحمر .. تسقط على رؤوس النائمى .. جزاءكم يا بهائم .. يابلد كلك ضلال .. النار تصعد فى كتلة واحدة كبيرة الى السماء القرية كلها كتلة لهب .. النار تزيح العنمة .. اشجار الكافور العالية بفعل ضوء الحريق تلقى بظلالها كالاشباح الراقصة .. توفيق يلثم .. تفصدرات العرق تغطى جبهته .. النفث الى سطح المسجد .. احس بدوار ياف بدماغه .. يتلمس فى الظلمة الحائكة موضع نذميه بتحسس خطونه .. يبحث عن السلم .. كل شىء ساكت مظلم .. يبطء ويحذر بنزل درجات السلم .. شفتاه مزومتان .. اللون الحريقى ارضاه تماما .. ترى هل سيحدث ذلك حقا .. اسلق نضحته فارغة عالية مسموعة من غير احد ..

- ٣ -

النجوم معزولة هناك فى الاعالى وراء ستائر كثيفة من سحب مظلمة .. فوق القرية فبة كبيرة سوداء .. هبات ريح ثلجية كالابر .. تهب اوراق اعواد البرسيم القافية فى الفيضان .. تطرد الذئاب والقطط البريوى داخل جحور طويلة منمرجة .. ضفدعة تائهة شريدة مسطوالة تطلق فى الفضاء الخلوى الدامس نعيبا منفردا كاداء الشهادة فى ساحة فضاء فارغة .. الاكثان مغلقة على داخلها .. فى حوارى اقربة الطينية ، الظلام حواجز متراصة من الطين .. يشرخها بصيص مخنوق منبعث من فرجة باب او من بين ضلفنى شاك .. مخلوق آدمى باكنافه الضيقة .. نحلته الشقافى الجلد والنعل ، بشق فصل السنه بجبهته الصفراء المرتعشة .. تلتفت وراءه فى حذر عميق .. يختم اشياء لا يراها ، مائلة امامه وخلفه تقنا .. ينحس جنب حبابه المنحول المفته .. يطمئن الى علة الكبريت .. م علمها باطراف اصابعه لم يركبف انطلقت من بين اصابعه وكأنه يقرأ ..

ماركة الهلب مرسومة على العلبة الصغيرة .. هنا الذى كان اسطبل
 دُخُول العربية الاصيله ، غذا شونة حطب .. شونة عالية .. جميع
 ايام طويلة .. الجاز يملأ صفيحة ينتظر .. لكل كتاب اجل، الليلة ..
 سترى من يضحك .. لم يعرف لم او كيف انطلقت من بين اسنانه
 ضحكة مثروبة .. هم ان يلتفت وراءه ، خشى ان تصطدم عيناه بواحد
 من الفلاحين .. كالشياطين يملئون كل مكان .. المصاطب ..
 الخيطان .. دورة مياه المسجد .. القاعات العظنة .. اسرع من خطواته
 .. الخشية ان يكون احدهم متعقبه .. لا تفارقه ، اولاد الكلب دورهم
 مفارقة .. قطة قفزت عبر الشارع من سطح الى سطح .. ومضة رعد
 شقت قبة الظلام فوق القرية .. كلبة عضاضة من مكنمها لصق
 عتبة باب .. نبحت الزول المتحرك فى الظلام جرى متخذاً طريقه الى
 جانب الحيطان هذه هى السراية .. ترقد مستسلمة هنا كانت البوابة
 الكبيرة .. باع خشبها ام سرقة الفلاحون .. المفتش بنفسه وقف هنا
 من يدري .. لعله وقف على نفس الموضع الذى أقف فيه انا ..
 حضرة المفتش وقف هنا .. جلد الفلاحين .. ضربهم عرافة بالكراياج ..
 القدمان تصران البوابة الكبيرة .. الوجل الدينى ابرز مشاعره ..
 مزيج من الخوف والحنين والوحشة .. واه من التصميم .. لم
 ير امه .. نظره لو لم تكن فلاحه .. انقباض لا ارادى بلغه من داخل
 صدره .. توقف .. التفت وراءه .. دماقه بدور .. يكاد يقع .. جده
 يقف امامه .. ابيض فى ابيض .. تماماً كما كان يحكى رجب عن
 ابيه عن جدته .. مهيب الوجه جلاليه .. يتسم لسيله ..

— جدى .. جدى ..

— توفيق ..

— سافعلها الليلة .. ساحرقهم ..

— اعرف ..

— .. جدى .. جدى .. هل تعرف .. لا تتخلّ عني .. أنت
 تشر .. فهمت باحدى .. تطلب منى ان انتظر حتى ينتصف الليل ..
 كانت الفكرة فى بالى .. حتى ينام الفلاحون .. سليلك فيه منك
 حصانك .. لا تعلق باحدى .. هل صدقت انى ارضى ببله الاهانة ..
 اخرا خادم .. جلد للفلاحين .. خادم مسجد او مؤذن باحدى لانه ..
 ذاك ذنب حفيد آخر هناك فى مصر .. سؤال باحدى .. نظرة ..
 آه لا تعبس .. ارجوك لا تتركنى .. الفلاحون لا يعرفون انك مقيم فى

السراية .. آه .. نسيت ان اسالك .. ام اننى سالتك ونسيت
الجواب .. ام انك لم تجب على سؤالى كنت اسالك عن نظيرة ..
ارجوك لاتعبس .. لا احتمل ان اراك حزينا .. انت تدري كم تحملت
من اجلك .. انا وحدى لاستطيع ان اعيش الا بك .. باقى السلاية
هناك فى مصر .. اظنك يا جدى لا تعرف كل احفادك فى مصر .. الخطا
خطاهم .. انت لم تجب عن سؤالى .. سالتك عن نظيرة .. ام انك
اجبت ونسيت انا .. انا انسى احيانا .. احيانا قليلة يا جدى .. جدى
انك تبتسم .. انا سعيد ان اراك تبتسم .. لانفوتك فكرة واحدة
واو كانت طارئة .. لكن لا يهمك .. انا اعرف ان الفكرة من
حقدهم .. انهم يحقدون عليك انت يا جدى .. لكن لا يهمك .. منذ
متى اقمنا لهم وزنا .. هؤلاء الفلاحين البهايم .. بحقدهم يحترقون ..
ما معنى ان يمصصوا بشفاهم كلما مررت عليهم .. ما معنى كلمة
لطف ..

.. آه يا جدى انك لم تجب عن نظيرة .. انت الاخر تنسى .. هذا
حسن .. كنت اظن سليلك وحده هو الذى ينسى .. اكتشفت الان ان
الجد العظيم هو الاخر ينسى .. من نحبهم لا بد ان يشاركونا نقائصنا
ذلك شرط .. انك - ولا تؤاخذنى - يا جدى لست الله .. قد تغضب
قليلا .. لكن لا بد ان نتصارع من حين لآخر .. ذلك مفيد يا جدى ..
انا احب ان اصارحك لا اخفى عنك سرا .. شئون السراية مشتركة ..
حضرتك وانا مسئولان عن السراية .. ثم لاننى احبك .. لذلك انا
اصارحك حتى لو اغضبك ذلك .. من يحب انسانا لا يخفى عنه
شيئا .. حتى الهمس الخفى الذى يلم به نائما .. ليلة قدر هـ .. آه
يا جدى صدقنى .. يا رجل كنت احدثك عن نظيرة .. عن نظيرة ام عن
الفلاحين ام عن الديون العقارية .. يا لطف الله .. الديون العقارية ..
صدقنى يا جدى عمرى ما فهمت هذا الكابوس .. الديون العقارية ..
اولاد كثيرون لك استفادوا .. اى رحمه الله .. لا اعرف .. لا اعرف
لم يكن شاطر! ، لم يستفد من الكابوس .. مات .. ما علينا يا جدى

.. قل .. خبرني .. كنت أسألك عن ماذا .. حقا انا ولذا شسقي
 تعيس .. أسألك أنت ان تذكرني .. كانك تابع .. هذا خطأ الكفار ..
 اننى ابن ناس .. قد لا اكون ذهبت الى مدارس .. لكنى سليل
 المفتش .. ان اردد كلمة عيال الفلاحين .. توفيق لطيف .. بالنسبة
 يا جدى يبدو ان الليلة ليلة القدر .. اعرف كل شيء .. بتكشف
 كل شيء .. كلمة لطف .. مامعناها يا جدى .. تعرف .. أقسم ..
 او .. كدت أقسم لك برحمة جدى يا جدى .. لا .. لا .. دعنى
 ارتب افكارى .. لا احب ان اترك فكرة لا اطرحها امامك لا بد للانسان
 من صدر يلقي برأسه عليه لا بد للانسان من آخر يسمعه ويسمعه
 منه .. حمدا لله انك معى يا جدى .. أنت تصدقنى .. لا بد انك تشك
 فى كلمتى بعد كل هذه الصحبة الطويلة .. لا بد للانسان من آخر
 يصدقه .. نعم يصدقه يا جدى حتى لو قال كذبا .. ذلك شرط ..
 نظيرة مثلا اريد ان أسألك عنها .. هل كانت أمينة .. لا تعيس .. لا تعيس
 .. اتوسل اليك .. ليس لى سواك .. لم يعد أنت الآخر لا تعرف
 من أحفادك سوى .. على الأقل انا أكثرهم حاجة اليك .. حقا يا جدى
 انا فى حاجة اليك .. والا كيف اقضى لىالى الطويلة فى هذه السراية ..
 لا بد للانسان من ونيس .. لن اجد آخر منك .. عشت حياتى من
 أجلك .. لا تظننى ضقت بذلك .. أنت جد عظيم ليس لكل الناس
 أجداد عظام .. لذلك حياتى كلها من أجلك .. مادام الجد عظيما ،
 ليس بكثير ان يهب الحفيد له حياته ، الانسان العظيم هو الذى يبحث
 له عن جد عظيم .. لا تبسسم .. است مغرورا حين وصفت نفسى
 بالعظيمة .. عظيمة الانسان من عظمة الهدف الذى يسعى اليه .
 وبلدوب فيه وبضحى من اجله .. حياته كلها .. يضحى من حياته
 كلها .. توسلت اليك .. لن اقول تذكرنى .. ان توقفتى .. الانسان
 فى حاجة الى من يوقفه من حين لآخر .. الله وحده ليس فى حاجة الى
 من يوقفه .. ذلك ان الله يا جدى ليس له جدود .. تعيس .. اعرف .
 كنت تتوقع ان اقول ان جدى هو الآخر ليس فى حاجة الى من يوقفه
 عند حده .. لكن .. يا جدى .. أنت تعرف .. نظيرة يا جدى ..

صبرك على أنت تعرف ماذا حدث فى تلك الليلة .. قهر معقول انك لا تعرف .. لابد انك تمزح .. يارجل عفوا .. هذه اول مرة اخاطبك بهذا الاسم .. يبدو اننا صرنا صديقين .. لابد للانسان من صديق يحدنه بلا كلفة وهو نائم .. انت جدى العظيم موافق .. حمالك الله .. والا بالله قل لى كيف تحتمل الحياة اذا لم يكن للانسان صديق .. لكن دعنى اصارك انت تحتفظ معى احيانا .. حق الحدود بيننا قائمة .. لكن الصداقة يميتهما تحتفظ .. قل اذن مارايك فى نظيرة .. مارايك فى الفلاحين .. فى عيالهم .. اعوذ بالله .. ولاد حرام .. هل قلتها هل قلتها انت ام خيل الى انى سمعتها، احيانا قليلة يخيل الى انى اسمع كلمات يرددها هواء السراية احيانا يخيل الى انى ارى اناسا ليسوا معى .. تظن صمموا على ماذا هؤلاء البهايم .. ان ازف الى جوارها .. البس جلاية جديدة اقف الى جوارها .. تلف حول القرية .. كنت اخضع كنت فى لحظة الضعف هذه .. لكل منا لحظات ضعفه يا جدى .. الم تضعف مرة واحدة فى حياتك لا سمح الله .. لاستطيع ان اقول انك تبالغ .. لكن الذى لا يضعف ليس انسانا .. جدى عموما دعنى اصارك .. حضرتك تخليت عن كثير من صفات البشر .. انك تقترب ان تكون الها .. هذه كارثة شخصية بالنسبة لى انا .. كيف اسامرك .. امصادقك .. ان القى براسى على صدرك .. ان اكذب عليك واتوقع ان تكذب على .. ان اعترف امامك بنقائصى ان تشاركنى نقائصى .. ان اسالك دون حرج .. هل حقا يا جدى تريد ان تكون الها .. انى اشعر بالحزن .. الانسان فى حاجة الى انسان .. الى ونيس .. الى اليف .. وليس الى اله كنا قد افتربنا .. ضحكاتنا كانت قد طرقت فى فضاء السراية .. حسنا يا جدى انت تريد ان تكون الها .. انا لا اعترض .. لن اعترض يا جدى .. لكن صدقنى انا حزين .. لأول مرة اشعر بالحزن .. بالوحدة فى ليلتنا هذه .. ان الالهة لا يصادقون البشر .. البشر فى حاجة الى بشر .. كنت قد رقت ايامى .. ان

تكون سري .. سعادتي نجواي .. انت لا تريد .. جدى .. هل انا
اخطأت .. لقد عشت مكتفيا بك .. هذه السراية الكبيرة الواسعة
ماكانت تخيفنى اطلاقا .. لانه آخر الامر سأجذك .. اجسذك فى
'انتظارى .. الفلاحون فوق المصاطب وقباب الافران يتزاحمون
كالنمل .. انا مكتفيا بك وحدك .. اصبحت حياتى كلها كنت « بكر
العين » عدل القرية كلها .. هل كتب على آخر الامر ان اعيد ترتيب
امورى .. كيف حدث ماحدث .. كيف وقع هذا الشرخ بيننا .. الا
بينكن ان يتحد الانسان مع غيره حتى لو كان هذا الغير .. جدا ..
ملاكا .. نورانيا .. قال الخواجة صادق .. الباشكاتب العجوز ..
الابن وحده هو الذى صلب .. غلظتى يا جدى انى تعودت على غير نفسى ..
على الواحد ان يكتفى بنفسه دوما .. لكن كيف يكتفى بنفسه ..
« عيب بعد كل هذا » .. كل هذا .. لم انت صامت يا جدى انت صرت
الها حقا .. ثم انت صامت يا الاهى .. مازالت لدى اشياء كثيرة كان
يودى ان احديثك عنها .. ان ابوح لك بها .. ان افضفضها امامك ..
لبلة ان هربت نظيرة .. تركتنى وحدى .. آه يا جدى انى فى حاجة
اليك .. اوه .. اوه .. لست فى حاجة .. كيف تعيش انت فى
الاعالى .. مع الصمت المطلق .. مع الوحدة المطلقة .. مع الاكتفاء
المطلق .. لكننى لست جدا .. لست الها .. انا حفيد .. كنت اود
ان تبقى ضحكائنا .. نضحك سويا من الفلاحين .. نعجب من مواويلهم
السخيفة .. ذا .. خدما خمال .. م هوش خيال وسايسها .. اللبالي
'الطويلة كانت متبقية امامنا .. اوه يا جدى .. صدقنى .. عفوا ..
فلنمح هذه الكلمة التى فرقت بيننا .. هل انا الذى قلت فرقت ..
هل افترقنا حقا يا جدى .. جدى .. جدى .. جدى أين انت .. بالله
عد .. عد كما تحب ان تكون .. الها حسبما تريد .. عد وهذا يكفى
بالله لا تدعنى يا جدى .. اتضرع اليك .. اتوسل اليك .. لا اطيع ..
انت الذى لى وحدك لا تتركنى هكذا .. عد لاودعك .. بيوت الفلاحين
تشفى كخلايا النحل .. عد عد انتفق .. عد لنتفق على أن نفترق ..
يا جدى .. اوه .. لقد تذكرت .. انت تتحدث بلغة الالهة .. انت

فذكرنى .. كنت قد نسيت الرسالة .. الليلة .. انا أم الفلاحون ..
لنرى من منا سيفضحك من الآخر .. جيبى .. علب الكبريت ماركة
الهاب .. صفيحة الجاز هاهى .. الحطب هاهو شونة عالية جميع
ايام طويلة .. بالضبط هكذا .. ارش الجاز على الحطب .. الوقت
مناسب تماما .. شكرا لك يا جدى .. سأشعل عود الثقاب بحذر .
هكذا ..

عين الحياة .. نظيرة

عين الحياه ... نظيره :

التراب الاحمر الذى لم يعد احمر الاغبس الضبابى لونا اللاسع
مداقا .. تشده من داخل الكانون ، مستعينة بفرع شجيرة خلة
بيضاء ناشفة ، اصابع مكدودة مرهقة .. جافة الجلد متشققة ايلانا
بالتكرمش ، تبدل الجلد على العظم ، بروز العروق الزرقاء السوداء
فى خضرة كاييه ، ملساء نافرة واهنة فى ظاهر اليد ، ثم الاسقامة
الى الابد .. مرة اخيرة وعظمى ، ذات لحظة قابلة ، لاشك فيها وتكف
هذه الانامل عن اللعب فى الطين ، عن لم الجله .. عن دفن بلور
القطن والذرة والقمح فى بطن ارض الناس ، وتعهدا نبتة تطل من
الارض بورقتين ثم شجيرات مستوية العود ، وتسلم الثمرة - دائما
- لصاحب الارض دون اعتراض ، اللهم حكمتك .

شهد النار يهب من بين جدارى الكانون ، يلفح ساقيها ، يمسلا
ما تحت ذيل الجلابية الشيت التى كانت منقطة بالورد الاحمر ذات
يوم ، الصهد يجتاح المناطق العليا ، قبة سيدى ذى النون صاحب
الكرامات ، العائش ابدا فى ادمغة صبيان ورجال قريتنا لا استثناء
للبنات والنسوان تأمله الاطفال كاطلسم ، يدور حول مقامه المهيب
الشريف الصية والبنات ، يضيئون له الشموع ، ليلة الدخلة يدقون
له الاكف والدقوف ، يقرأون له الفاتحة ، يرسمون له علامة الصليب
من بعيد متحسرين اذ يتقدم العمر الغارب ويتحف الموت الذى يمسح
كل شيء حتى كرامات سيدى ذى النون التى لا تنتهى .

هى ليست كالفلاحين ، بالتحديد ليست كنسوة الفلاحين حطهم
مشون على السطح ، ماعلى الواحدة منهم الا ان ترعق صغيرتها او تظلم
بنفسها السلالم وترمى بحزمة حطب القطن او قش الذرة امام الفرن
الخبيز او الكانون للطبخ هى قدرها العادل خصها بفروع الصفصاف
والسنط والكافور وشجيرات الخلة الناشفة ، شجيرات زرعها
الشيطان نفسه على احواف المساقى وحدود غيطان الفلاحين وجسور

الترع ، خضراء ، فتلية الاوراق ، بيضاء الزهيرة ، كقطع الجبن
القريش التي ياكلها اولاد الفلاحين بلاش ، هي تشتري - في ايام
الرخاء الوافر - الحنتين بتعريفه ، باصابعها هذه بنت الكانون الدار
تقتعد الارض امامه ، تلقمه وقوده ، جمعته بنفسها من الفيطان
عقدته بحبل ، قعدت على قزحها ، عافرت حتى رفعت الشيلة ضغطا
من على الارض حتى استقرت فوق يافوخها سندات الشيلة بيدها
اليمنى باليسرى ضغطت على ركبتيها .. شدت جسدها كله ...
كانها ستلد ... كانها ستقذف من جوفها بأرطال لحم اذ وقفت منتصبه
على حبلها والشيلة فوق رأسها كانت حبات مرق متناثرة على جبينها
.. كانت حبات عرق تجمعت منسالة على قناة ظهرها ، كان وجهها ،
متفصدا باللون الاحمر الفامق ، في اذنيها صغير .. على انها لم تحس
طويلا بالدوخة التي المت بها ، على جداري الكانون تستقر حله ،
عدود من الدخان الازرق الابيض المتوج ينبجس من نار الكانون ،
يشمل وجهها ، مع الصهد ، يسطبع الوجه باللون الاحمر المختنق
بالدخان يقتحم عينيها ، ينحدر من ماقبها خطان من دموع ، دموع
لا تشي بفرج ، لا تنبئ بسخط .. في قابل العمر وهي تواجه واحدا
من هذه الكوائين ، سيهتك الدخان غشاء الانف وتختلط الدموع
بالسائل الانفى ... سستمد الاصابع المعجفاء تجفف بالوهن
منخاريها وتمسحها في الجلاب الاسود الباهت بلا أطياف ورد ،
تشرت فتلاته عرقا وترابا وطينا وبعض الوحل .. زحافات
الدخان تتوزع بين هواء سطوح القرية الحر الطليق .. وهواء الحارات
الضيقة الشعبانية .. تلتقط الانوف نشرات عمود الدخان بما يحمل
من رائحة اعواد الخلة المحترقة ، يتحد ، ليس بكلمات منطوقة او
باشارات مرسومة ، يرسم في الدهن معنى ، ولا مسافة - عند
من لا يدري - بين صاحبة الكانون وصاحبه .. يقعان - على اختلاف
الدرجات وتباعدها - في منطقة ملعونة ، ليست من الدين يسوون
طبيخهم على نار اعواد حطب القطن رائقة اللهب والرائحة صافيتهما
او على نار وابورات الجاز البريموم التي تزن في البيوت المستوردة
في حجرات الحصرية ومقرئي القرآن واصحاب دكاكين المعسل
والسجائر والصابون والحلاوة الطحينية والمعسل الاسود ، سادة
قريتنا الصغار .

- قسمتي كده .

لم تمشح الدموع الدخان .. الدفء .. دفء الدموع .. البعيد الهادئ المتجدد بالسبيلة الوانية والمتحدر عبر الرموش .. أخف من أن يلسع وإعقب من أن يقف عند ملامسة بشرة الخدين في نغمشة خدرية محموسة محسوسة منملة ، غامضة تنتسب الى الانتصار البدائي الذي تسجله المرأة بأخر نفس من محاولات المقاومة الشرسة التي يعقبها تبرز أظافرها في جسد الفريسة مع صلوات المهمة المتحشجة المكبوتة لا تكاد تبين ، ترددتها جنبات الكهف الذي كان مظلماً بهيما قبل أن تخدش ظلمته فتلات فطن أو معدن تحترق وتضيء ، ويسد مدخله لوح خشب ويسمى بيتنا .. - قسمتي كده .

البناء الحجري الواسع الذي لم لحمها وعظمها وشيدت في ركن منه كائونها ، لا تعرف متى أقيم ، لا تعرف من بناه ، سراية عيلة الناظر .. الناظر يا أولاد كان يمسر ودان الفلاحين في الطليبة ، كان يرمي نسوانهم في بير مسحور ، العفاريات تملأ الأسراية ، جدرانها عالية ، الفتحات التي كانت شبابيك تلمع عليها شمس العصاري أزرق وأصفر وأخضر ، مربعات زجاجية في حجم الجبنة .. دوائر في حجم فتحات القلل القناوى .. لعان يربك عيون الفلاحين دهشة واستغفاراً لله العظيم الذي يخلق مالا يعلمون ، الشبابيك عيون مفعوقة في جسد الحيطان العالية ، تحديق فيها عيون الفلاحين فزعاً من السراية المهجورة .. الصبية الصغيرة تشير والقطف المتهرىء فوق رأسها ، تلف به حول دابر الناحية ، مع صفيرات في لون الكركم ، يتسابقن الى درقة الجلة ، ساخنة فور سقوطها من بطون جاموس الفلاحين تلقى على الدرقسة بعض قش السكة ، وبحرص تجمع وتكوم ، تستقر في القطف ، في أدمغة الصفيرات المتنافسات على لم الجلة ، يتناسب حجم البناء مع حجم العفاريات داخل السراية .. الصبية الجريئة وحدها هي التي غامرت ومقطف الجلة يعتلى - رأسها ، وألقت بنظرة سريعة من فجوة شباك ، قدفت بحجر .. في فهمها رأس عفريت مبطوحة تكبر الصفيرات ، بتغير حشو الفراغ بين أطراف الأصابع وأظافرهن الى طين أسود بدل الجلة الخضراء ، صرن نسواناً لهن حجرات ضيقة مظلمة رطبة يعرفن ويبول فيها العبال والمعيز ويلد ويفقس في أحجارها الدجاج والبط ، الواحدة منهن تنسل - في الليل - الى سراية عيلة الناظر ، تختلس

عددا من الطوب الاحمر لبناء كانون فرن ، او لالقائه في البحراية
 بنفع عند اللزوم ، في قلب الصغيرة خوف مستقر عالم قديم ، السراية
 البناء الخرافي المتحول المنسرب الحلمى ، يقف عاليا وحده ، تنشا
 حوله وتعدد دور الفلاحين ، كالنعش القديم الهائل الحجم الذى كف
 اهل القرية من فرشه بلحاف مستعار من دار مستورة ، النعش
 يقف ، وحده متساندا بين المقار ، يمثل في فهم اهل القرية وكلماتهم
 ابناء ، مجرد مصمصة مسموعة اذا جاء ذكر سراية عيلة الناظر ،
 وقد تمنع كلمة ، كل ما تراه العين زوال ، على ان هذا البناء النعشى
 قد تحول في دماغ نظيرة ، وقد انتهى امرها ، مقدر من يوم الازل الى
 ان تسكنه الـ ، عريت مشجوج الراس تتساقط منه دائما قطرات
 .. دم احمر ..

بالدمع التحدر نفخت الكانون تحت الحلة ، تزرع الدخان المتراكم ،
 تلهب اعواد الحلة وفروع الصفصاف ، يسقط على وجهها ضوء احمر ،
 يبرز قسامته ، بالقماشة القديمة المتسخة ، بعد ان سترت العورة
 سنين لاتحسب ، بعد ان ترقعت في كل موضع ، الركونة ، بعد
 العمر الطويل في الخدمة ، الى جانب الكانون ، امسكت غطاء الحلة
 النحاس ، رفعت الغطاء ، اندفعت هوجة البخار الساخن ، المساء
 ينز غليانا ، في المصرف النظامى الذى ترقد القرية في ظله ، محصورة
 بينه وبين سراية عيلة الناظر وقضبان السكة الحديد الفرنساوى ،
 في عز الشتاء ، في ايام برد العجوزة ، الدنيا ساقعة كالرماس ..
 مياه المصرف تجمد الدم في عروق البنى آدم ، هي والمياه تغطيتها حتى
 الحزام ، منحنية تنقل قدميها بحساب ، بطن القدم يضغط وجه طين
 المصرف ، الطين يبظ من بين اصابع القدمين ، تمد يديها ، تحس
 بهما طين شط. المصرف ، تبحث عن منامة من منامات السمك ،
 حفرة فتحتها ضيقة تعشش داخلها بلطية .. بلطيتان او ثلاث ، على
 ان الانامل العشر المتكرمشة الجلد ، تسمح وجه الطين ليس بحدرد ..
 بتنبؤ ، تششم رائحة السمكة قبل ان نلمسها ، الانامل العشر
 المنجمدة المتباعدة لتفطى اكبر مساحة من مياه المصرف النظامى ،
 متبينة في ومضة اقصر من ارتداد الطرف الى ان تتجمع وتلتقي
 البدان في شبكة حديدية لاخترق ، بينهما سمكة كانت ثوا آمنة
 تسبح خلية البال بحثا عن ورقة عود نسيل ، وهي تصطاد السمك

اكتشفت نافورة تقلب المياه الصافية من باطن الارض - يومها صرخت
تجمعت النسوان والبنات اللاتي اندهشن ، فالمصرف في اوقات
امتلائه يتلج ماء النافورة .. ضحككن .. تشائمن .. تحاسدن
على الصيد .. اطلقن اسمها على عين الماء قبل أن يعاودن فسرد
اصابعهن في لعبة البخت ، وسط مياه - لولا برد الشتاء - لكانت
امنة . لكنها تسحب القلة الفخار القديمة ، مكسورة الرقبة ،
سرداء بطيمة قبضة يد ، نزعن سداتها ، خرقة قديمة ، صبت في
كفها الايسر ، حفنة ملح رشيدى خشن ، ملح لم تشتتره بالردة الخشنة
او باكواز الذرة او بارغفة العيش كما تفعل نسوان الفلاحين ، مدت
بدها بالتعريئة الابيض المثقوب والذي يحمل نقشا تعرف بفطرتها انه
كتابة ، لكنها ، لا تعرف من هو السلطان حسين كامل الذي تحمّل
اسمه بين اصابعها ، على ان الكتابة - عندها - كالحجاب .. حضوره
يفنى عن فك امراره .

هات باواد يا حسن بقرش ملح ، بس اتوصى ، احسن والنبي ارمي
لك على العربية وامشى .

وينتمى الاراد حسن ، بائع الملح الجوال ، وتلمع سنة ذهبية
نراها زبوناتهن من النسوان والبنات ، في قرى الجهة وعزبها وكفورها ،
لا تعرف واحدة منهن ، من أين يأتى ، لا يعرفن سوى الواد حسن
بتاع الملح ، بوجهه الاسمر ، بطاقيته الصوف الحمراء التى يشبكها
على جنب راسه ، تغطيها قصة شعر سوداء متفجم ، يصدره
المكشوف ، بصوته ، الملح الرشيدى الملح ، تعرف النسوان والبنات
انهن معشوقات حسن ، يعرفهن واحدة واحدة ، يوقف عربته على
راس الحارة ، يملا حفانه فولا مدشوشا ، يدسه فى مخلة التبن
والردة .. معاققة فى رأس البغل ، يدخل بوز البغل فى المخلة ، يربت
على كفه ، يطق صيحته ، الملح الرشيدى الملح ، عيناه ترصد ابواب
البيوت ، يترقب زبوناتهن ، يعرفهن بالاسم ، يحدثهن فى بشاشة
ومودة وخلق نال ، لكن هناك فى عزبة ملعونة مهجورة فى آخر الخلد
على شمال السما ، حظا اسود ، ساق عربته اليها فى يوم شؤم ،
لا يشتري كل أهلها قدين من الملح .. هناك ، تتوقف عينا حسن
على باب دار بلا سقف ، يطلق صيحته الملح الرشيدى الملح ، يدق
قلبه حتى كأنه سيتوقف .. جسده كله مهيا للشلل حتى تخرج

نجفة بقدميها الحافيتين ، بنهديها ، كقبضني البد ، بعينيها السوداءوين
ولا شيء ..

انا اقدر تمشي بانظيرة .. ياست الكل ..
.. يضيف بعد أن يأخذ التعريفة يضعه بين شوالين مفروشين على
الدربة ، حفنة ملح ، يتبادلان ابتسامة صافية تماما ، وقبل ان ينصرف
واذا ماكان الحر خاليا يثرثر ..
- معلش ، حظي زى بهيمتى ، م علينا ، ازي سى توفيق ، الايام

دى ..

هنا تنسج الابتسامة المشتركة ، تخبطه نظيرة على صدره ..

- لم لسائك ياواد ياحسن احسن لك ..

ثم وهى تطرد نفسها منسحبة من جواره .

- سى توفيق سيدك ، وسيد الرجالة كلها ..

يتأملها حسن ، كعبها المدعوك بالحجر الخرفيش .. بزى قدميها
المعتلتين ، شعر الضفيرين يتنطط بالتبادل مع كل خطوة ، تنطق
البسمة على شفثيه ، تختفى السنه الذهبية ، يخطط البغل بهيمته ،
رفيق طريقه ، على كفله بود وعتاب وشكوى ، يتمتم .. ياميت ندامة
على اللي حب ولا طلش .. دماغه ، جسده كله .. شى يا حصان ..
الملح الرشدى الملح .. باخسارتك ياابو على .. توفيق سيدك ..
ياميت ندامة على اللي حب ولا طلش ..

فى عين العدر ، ألقت حفنة الملح ، لمحت الملح للحظة مستقرا فى
قاع الحلة ، سحبت منخلا متنسج الاطار ، صدىء الاسلاك ، قلبت
ورقات الرحلة المخروطة ، خضراء معتمة ، حمراء بنفسجية ،
اسفنجية ، منورمة بسائل ابيض شفاف مخاطى ، وسارعت نأحكام
غطاء الحلة ، لم تقصد أن تكتم نفس الطبخة ، تنهدت نارتياح قدرى
قديم ، انحنت بنصفها العلوى ، مدت رقبتها ، نفخت الكانون ،
بعود صفصاف ناشف لا تذكر من ابن حماته على راسها الى البيت ،
وسحبت بعض التراب الأحمر من داخل الكانون . دست لفة صغيرة
من أعواد الخلة .. امامها فسحة من الوقت .. تفصص التوم ..
تحمره فى الزيت .. تطش به حلة الرحلة ..

.. خطت داخل حجرة المعاش ، البلاص يقتعد ركننا من اركان
الحجرة ، يسد فمه حزمة حبا بحر ، مكفى عليها كوز صفيح .. علبه
سردين قديمة ، لم ترفع كوز الصفيح ولم تنزع سدادة البلاص ، لم

تفرغ لنفسها شربة ماء بعد ان تسند البلاص على ركبتيها ، لم تستطع ان تحدد ما اذا - كانت مرتوية او عطشى ، لم تشعر بالدافع القوى لاشرب ، هذا لايعنى انها ليست عطشى ، يعنى بالتحديد انها ليست كثرانة من العطش ، اى مرتوية .. فى بثونة الحجر ، والشمس قد حرقت كل ماتحتها ، وهى فى واحد من غيطان الفلاحين تجمع لوزيات القطن ، باصابعها العشر تبدل ، الكف التى يملؤها القطن المجموع تدسها فى سبها ، فى ناحية القيارة ، قد تكون جوعى كذلك ، لكن ذلك لا يمنعها من ان تخطف رجلها الى اقرب قناة بحثا عن نقره فيها بلاصين من الماء .. لا يمنعها ان تكون حرارة الشمس قد اوصلت الماء الى قرب درجة الغليان .. لا يمنعها ان يكون نبات الريم الاخضر يقيم وجه نقرة الماء .. لا يمنعها ان تكون الطحالب الصغيرة تنثر كانسهم الطائشة على وجه نقرة الماء ، لا شئ يمنعها عن ان تفرش على حافى القناة الصغيرة ، تميل بنصفها العلوى ، ترصد فمها وسط اعلى النقرة ، تصنع من اصابعها الخنصر والبنصر والوسطى والسبابة مجرافا صغيرا .. المجراف قارب مرجيحة صغير ، تقذف الماء الى اعلى قدر ارتفاع الركبة مرتين ، تلتقط شفتاها قذيفة الماء ، تطبق شفتيها ، تجمع حفنة الماء ، وفى قذفات سريعة متتابعة تتناسق فيها حركة الكف ، ترفع الماء ، وحركة الشفتين ، تلتقطه من اعلى ثم تنطبق عليه وتجميعه .. وقبل ان ينده عليها صاحب الارض حتى لا يضيع اليوم الذى كراها فيه اجمع القطن لا لمرقعة النسوان التى يعرفها .. عليها ان تروى وتجفف شدقيها وتحمد الله الذى خلق من الماء كل شئ حى .. واحيانا لتبرد به جوفها .. عليها ان تسد اذنيها عن الشتائم والاتهامات .

... عليها ان - تهتمهم .. قطيعة الفلوس على الى عملوها ، والله فلو سكم يا ولاد ستين كلب يامسايرم فيها بركة ، ملعونة الارض ع صاحبها ، هتشتروا الشغالة بالقرشين اليومية ، قطيعة تقطع العيشة والى عابسينها . وعادت فاتخذت جلستها امام السكانون اسندت زجاجة الزيت الى الجدار مسحت السكينة بطرف جلايتها التى كانت مشجرة ، لم تلاحظ البهتان فى لون الجلباب ، امسكت فص التوم المقشر تخبطه بالسكينة ، طاسة الثقيلة امامها ، سوداء بطقات الزيت المحترق والتوم المحترق والبصل المحترق وصدا النحاس الذى كان احمر يوم اشتراه المرحوم جددا لامها قبل زفاف

الام ذات ليلة لم تحضرها نظيرة بنفسها ، وان ارتسمت في ذاكرتها كل تفاصيلها ، فالام وان اصطنعت الرزاة وهى تحكى لابنتها لم يفت نظيرة مخايل الرضى وراء الكلمات ووراء قسَمات الوجه الذى كان مليحا يوما لابن ، ما خلا وجهه من ملاحه ..

— قسمتى كده ..

لا تقصد شيئا بذاته ، البلاص ممثليء لاكثر من منتصفه بالماء الصابغ من التربة والورق بنقى الشمس ، الطبيخ على الكانون ، غلوة وطش الثقيلة ، والجائع ياكل اصابعه لا ان يلحس ماعليها من طبيخ الرجل ، السكين فى يدها ، تدقق فى تقطيع فصوص التوم ، دون ان تقصد ، دون ان تدري ، عليها مجرد استجابة حسية البناء الواسع الخالى الذى حمل اسم سراية عيلة الناظر ، ما اطلقت عليه هو سوى اسم المخروبة ، للظلام الساحب المتسلل المقبض الذى فاجأ عينها داخل حجرة المعاش لحظة ان دخلتها ، او لعلها القطعة التى طلعت من تحت الارض تتمسح فيها بشدة وتحك نفسها فى الجنب امام الكانون وترفع ذيلها المنفوش الشعر الى اعلى تدفعها عنها فى فشريرة جلدية داخلية عميقة ، الققط فى بيوت الفلاحين المعمورة بالعيال والناس قد تكون القرين ، الاخت التى تحت الارض ، الققط مثل هذه المخروبة على رأسها ورأس الذى بناها عفاريت مؤذية او لعله لهذا الخوف الذى يكمن داخلها ولا تقدر ان تمنع جسارة هربا منه ، نهرب من المقدر فين ، المكتوب مكتوب ، الى انكتب ع الجبين لازم تشوفه العين ، لا تفسكر هى ان تفر من أى شيء ، رب هنارب عنك ، رب العمر كله ، للتهويمات الغامضة الحزينة التى تنلبسها وتستقر داخل دماغها . تحت الشمر الطويل المضرر الاسود لولا مابه تراب — مع هبوط الليل فى قريتها ، تخلو الفيضان والسكن والحارات والمصاطب من النور والناس ، الرجال والنسوان والعيال تفرق مجرد استجابة حسية ، قد تكون فى الضلعة الخرس ، او لعلها مجرد استجابة حسية ، قد يكون املاها اختناق حركة يدها وهى تخرط فصوص التوم الى قطع صغيرة فى حجم حبة قمح وسارت العدوى الى احساسها ، من اختناق جسد الى اختناق روح ، او اختناق لا تدري ما تاء ، فرامت واخذت نفسا عميقا واستغفرت الرب العظيم فى سرها وتاوهت ..

- قسمتي كده .

لا علاقة بين الكلمة المنطوقة وای شيء حول أو داخل صاحبها
علا تردها بتأثير - الوراثة أو العدوى من أمها ، على قزحها تجلس
امام الكائون ، تنفخ النار في اعواد الخلة وفروع الصفصاف وتغلي
الماء وتلقى ورقات الرجلة الاسفنجية المطرخة بلونها الاخضر الاحمر
البنفسجي الليمادي ، تخرط فصا أو فصي توم ، وكانت الام تلقى
نظرة سريعة خبيرة الى السماء وتحدد الوقت بتدرج كثافة هبوط
الظلام ثم بأذان المغرب ثم بأذان العشاء .. وفي الليالي المظلمة برصد
نجوم تعرف مواقعها ومواقيتها ظهورا واختفاء ، وكان يخنقها تخريط
النوم ، ودون ان تدري ، ودون ان تقصد ، مثل ابنتها ، تتلبسها
روح مخنوقة حزينة ، حزن ليس لشيء بذاته . أو على شيء بذاته ،
بإهمها حقا هو السر ، والحالة مستورة والحمد لله ، ياما عينك
تقصد عينها هي ، شافت يابنتي ، اقول لك أبه والا أبه ، قسمة
ونصيب ، أو لعل النظرة الوانية حتى لتبدد عشا ، أو لعل الانقباض
انتقل مع اون الشعر الاسود من جدة بعيدة ، دلقت ذات ليلة من
لبالي شهر هاتور ، طشت ماء على العتبة ولم تذكر اسم امون أو لم
تمجد المسيح اولم تبسل في سرها .

كلمات مملوطة منغمة ، كلحن قبلي ، يصغره - دون أن يدري -
فلاح يسلي وحده في ليل حياض الصعيد ، كلمات لا ينطقها لسان ،
كل خلايا جسد ، صحا من النجمة .. مكسور من وسطه على
شجيرات القطن يجمع بيديه الاثنتين اللوزات البيضاء ، كلما امتلا
كف دسه في الشمره متدلية امام فخلديه معلقة من وسط ظهره ..
مر بصباح نادى مضرب وضحي مندر بشمس حارقة وقبالة يذبل
قربها كل الاخضر وعصر تتردد فيه اغنية تبتعث الحيل الفاتر ،
لكنه الجسد هي دافئ صاد ابدا .. داخل الجلباب الباهت ضاعت
وروده الحمراء في غيطان الفلاحين الكفرة من طلعة الشمس لغطستها
داخل القميص البصلي واللباس دم الغزال والتكة صوف شبكها
عاشق قديم ..

أيش معنى يابخت .

من دون اليخوت .. ليخت انها لاتعيش لحظة حزن أو لحظة فرح ،
تميش لحظة نقص ، ليس نقص شيء بذاته ، الماء في البلاص ،
الطبيخ في الحلة ، أرغفة العيش قد لا تملأ المشنة لكن فيها مايكفي

للعشاء وللغطور وقد يتبقى رغيغان ، تلفهما مع فحل بصل في قطعة قماش من قميص قديم ، تحملها على رأسها ، وعلى رأس خط القطن الذي ستجمعه .. تبحث عن مكان متوار مترب ، تنبش بيدها ، بحرص شديد تضع قطعة القماش بداخلها .. وجبة الغداء ، ثم تهيل التراب ، تساويه ببقاى الارض ، تتفرغ هي .. تعطى صاحب الارض مقابل اجرتها ، رفى اوان الغداء تخطف رجلها او تصف لعل من عيال صاحب الارض النقطة التى يتوارى فيها اكلها .. نادرا ما يهتدى كلب صاحب الارض الى مكان الرغيقين ، ورغم انه لا ياكل العيش الا انه سيفتتها بمخالبه ، وفى هذه الحالة ، تشتم الكلب وربما صاحبه ، واذ يجلس الانفار الجمبعة فى ظل كيس القطن المنتصب فى القناسة لتناول غذائهم ، تفشل كل المحاولات التى يبذلها صاحب الارض وزوجته والانفار الشغيلة فى حمل نظيرة على أن تملأ حنكها بلقمتين مع أى منهم ، الايمان المؤكدة بحياة سيدى ذى النون ترتفع الى سماء زرقاء صافية تمتد بلا نهاية حتى تلاقى الارض لا يشوبها غيم واحد ، نظيرة شبعانة ، نظيرة بطنها لاتسع كسرة خبز واحدة ، ليس لها نفس ..

— ياه ، ياما عينكو تقصد عينيا هي ، شافت الحالة مستورة والحمد لله ..

نقصها لا يقع عليه بصر ، نقص يتخطى مطالبها الجاهزة ، نقص يستشرف دنيا غامضة ، دنيا بحالها غير التى تحياها ، دنيا ما راتها وما سمعت عنها ولعلها — اذا سمعت اليها ذات يوم — تنكرها ولعلها — دون ان تدري او تحس او تعرف — تواصل بالكلمات .. بعد امها وجدتها البعيدة ، البحث عنها ..

هو فين ياناس

سوق البخوت

اشترى لي بخت

وطشت التوم المحمر فى حلة الرحلة ، اعادت احكام غطاء الحلة ، تميات لانزال الطبخة من فوق الكانون .

— س الخير يانظيرة

لم ترد .. استعاذت بالله من الشيطان الرجيم ، فى باطنها ان الرجيم صفة ود مشاكس ، ككوز اللرة فى ارض الفلاح يتأمله جائم لم يحسم امره بعد ، زابلتها لغورها لحظة الوجد النشوان الاسيان

البعيد الإغوار ، السؤال الذي لم يتشكل أبدا ، البحث الهائل
المطوف دون دراية أو حس أو معرفة عما لا تعرفه بذاته .. عما تطلبه
ومالا تطلبه بذاته .. ركبته ربيع لا تدرى ماأناها .. فى وعيها أن
المخروبة بحيطانها العالية ، ببقايا السور الذى حولها ، ليست من
البلد ، أحست بعزلة المخروبة بدت غير مرتاحة ، اتجهت الى أن
تتخلص من الموقف الطارئ المرهق ، لا لشيء أكثر من ذلك ..
- لا خير ولا يحزنون ..
الولد شحاته ، بهت ..

- أن شاء الله ماسرحتى ، لا انت ولا اهلك ، مرة جاموسة ، بنت
ستين كلب ، لو كان جوزك راجل كان رباكى ، لكن كروديا .. كلمات
الشتيمة جادة صريحة ، لا غمز فيها ولا تحويد ، شتيمة صادقة ،
شتيمة مقصود بها الشتيمة لذاتها .. أحست بالخبو ، بقسار
المرجيحة ، جر الشتيمة مأمون محدد فى قبضة يدها ، كالفلته فى
حقل القمح ..

- ماجاموسة الا امك واخوانك ، خدام ابن خدام ابن ستين كلب ،
وما كروديا الا انت ، جوزى جزمته برقبتك ورقبة اسيادك الى
تشتغل عندهم ..

.. ثم ضحكت الى أن انفرج ما بين شفثيها وبانت اسنانها ، عامل
راجل زى الرجاله ، وهزت رأسها ، رجالة آخر زمن ..
- أعوذ بالله .. لسانك متبري منك ..

... كانت قد انتهت تماما ، انتظم خفق قلبها ، سحبت نفسا
عميقا ، عقلها الآن فى رأسها ، تملك نفسها ، فى جيب شحاته ، أجرة
يوم لجمع القطن فى غيط عيلة السوالم ، حسبت بسرعة ، لو تقبض
أجرة خمسة ستة ايام مقدما ، تشتري كيلة درة ، ابتسمت وهى
تنهد ..

- انت ياراد يامشطوب الاسم بتطلع من تحت الارض ، لابس طاقة
الاخفا ؟

بدات تتأمل تفاصيل وجهه ، وقفت عند القصة والطاقة الصوف
الاحمرء الواقفة على مؤخرة رأسه ، الشارب المبروم ، العصا الخيزران
الرفيعة ، دليل الفتوة ..

- عامل راجل زى الرجاله ..
ثم ضحكت . كانت قد هضمت اللحظة ، ضربته على صدره ..

— شنب وعصابة وعاج الطاقية ، فاكرك الغنوية ، انا خدت الواد ، ده غيه ، على عارضة الطاقية ، ذاتها وكسه ..
شحاته لم يفك مسارات التغيير فى حس وفكر المرأة التى يقف امامها ، بمزيج من حسه وفكره ، جدمنته وفهلوته ، التقط ان شيئا كان موجودا ساعة ان باغت نظيرة ، ثم ، طار ، ودون ان يقصده سوى ان يتحدث ، يتحدث ليفكر ..
— بت بانظيرة ، قين توفيق ..

السؤال برىء ، او بدا لنظيرة انه محايد ولا يقصد به الا ذاته ، كانت قد رحلت عن .. لا خير ولا يحزنون ، لعلها احست خيبة امل فى انها قاومت وهما ، او قاومت ، ولعلها ستنكر ، وستحلف بسيدها ذى النون ، قارمت نفسها ، اقرب الى حالة الفتور همدانة ، تجرى بدهنها حسبة ثمن كيلة الدرة وممن ستشتريها .. هل سيمهلها يومين او ثلاثة اذا تقص الثمن بريزة او خمسة صاغ ، ولاد الفلاحين يستاهلهم ناظر الوقف يكسر رقتهم ، بس احنا يارب الى نعيش طول عمرنا نشترى كيلة بكيلة ، ومايكملش ثمنها ابدا ، ياخشتم الى مخزنين الدرة فوق سطوحهم ، وسالت ، بدلة وانكسار وشى بهما رنة صوت كلماتها ولحظة التجمد كالدমে — التى هبت على ملامح وجهها .

— ياواد باشحاته ، قوللى ، كيلة الدرة بكام الايام دى ..
كعلم بعيد لمع فى مخيلته ، رشاد افندى بركله بطرف حذائه الاحمر الاجلسيه ، امه تخدم فى بيت عائلة السوالم قبل ان يولد شحاته نفسه ، اتولد لقهاها تخدم فى بيت عيلة السوالم .
— ايه الله معاكى ده يابى بابهانة ..

— ابدا ياستى ، والنبي ، ماخذت حاجة ..
امتدت يد بيضاء بضة تشد فتلة قديمة من لباس بهانة .. يد ثقيلة اوقعت بهانة على البلاط الصالة ، بلاطة بيضاء وبلاطة سوداء ، وقعت ام شحاته فوق البلاط فى المكان الذى يقع بين حجرة النوم وحجرة السفرة فى بيت عائلة السوالم ، اصة لا بتمر فيها المعروف ، بصقة وقعت على انفها ، عصا رشاد افندى تعمل على قفا بهانة ، نطق شحاته ، امه ليست لصة ، شحاته فعل ذلك ، بوز الجسزمة الحمراء الاجلسيه استقر بين الينيه فى خبطة شديدة بهتت على اثرها — وبسببها لمة الحذاء ، الخيزرانة تحولت الى اكتافه ، لص كامه ، عوى من لسع الخبطات ، انسحب شحاته الى زريبة البهائم ، بهائم

رشاد الهندى ، متخلفا أمه وراؤه متكورة ، من بين شفتيها ينسسل
خيوط دم احمر ، كومة خيش قديم تن ، تستعطف ، تقسم ، ترفم
يدبها بالضراعة الى ست البيت التى تقف منتصبه مفضبة ..
- معلش ياستى ، الماسح كريم ، عمرنا خدامينكم ..
شحاته ينحى بالقهر صورة أمه ، ينحى معها بالحره صوت
نظيره ..

- واد يا شحاته ، كيلة الدرة بكام ..
كانت قد انطلمت فى حسه صورة نظيره متحفزة لا بدرى لم ،
شرانيه ، لا بدرى ام ، مخنوقة ، لا بدرى لم .. ساعة ان دخل
عليها ..
- لا خير ولا يحزنون .

.. عاد شحاته يسأل دون ان يجيب متجاهلا السؤال الذى وجهته
نظيره اليه عن ثمن كيلة الدرة ، بصوت اقرب الى الهمس ..
- بقول لك ، توفيق فين ياست ..

حسبة ثمن كيلة الدرة وممن ستشترىها ، وهل سيمهلها يوما او
يومين ، لاتزال تدور فى دماغ نظيره .. وهى تعرف ثمن كيلة الدرة
تحديدا ، فى طريقها - كل صباح الى الفيط ، وفى عودتها - كل
مغرب - من الفيط .. وسواء ستشترى ام ان الصفيحة ملانة
بالدقيق .. نسأل عن ثمن كيلة الدرة .. وتكمل فى داخلها .. هل
يرضى ابن سنين كلب هذا ان يعطيها مقدما ، ثمن كيلة الدرة كاملا
على ان توفيها سروحا معه فى ارض عيلة السوالم ..

- وحياة سيدنا النبى ، وحياة سيدى ذى النون ، يا شحاته ،
.. اسرح معاك لفاية ما اخلص ثمن كيلة الدرة ، انت عارف انى
جد ، كلمتى واحدة ، اقول .. لك هاسرح معاك ن لفاية ما عيلة
السوالم تخلص جمع ..
- نظيره ، بللى ربقى .

.. انسلت الى حجرة المعاش امسكت كوز الصفيح ، رفعت سدادة
السلاص ، حزمة حبا البحر ، امالت البلاص ، سندته بركبتها ،
ملأت الكوز ، كان شحاته وراؤها ، مدت يدها اليه بالكوز ..
- ابقوا اشروا فى دوركم .

امسك شحاته بكوز الماء ، لم يرفعه الى فمه ، ردد مبتسما جادا
حزنا متوسلا فى همس ..

- بقولك ، بانظيرة ، بللى ربقى ..
.. اخيرا التقطت نظيرة كلمات شحاتة ، شحاته يقذف رغيف
الفجين داخل فرن خمدت - نيرانه ، ومافى جوفه غير الرماد ،
انتسمت .. ضربته على كتفه ..

- ياشيخ احنا فى ايه والا فى ايه ..
مع انها تشتت وانتسمت ونعمت الكلام وضربته على كتفه بالفة ،
لكنها لم تمد الصوت الاول ، مد يده اليها بالكوز ، وهى تأخذه قبض
على معصمها ، اطلقت آهة الم من خشونة اليد ، المسألة كلها
محصورة داخل دماغ نظيرة ، تدبرها بحسابات ثمن كيلة الدرة ،
ومدى قبول شحاته ان يعطيها مقدما ..

- سيب ايدى ياواد ياشحاته يابن بهانة ..
... فى عجلة ، اخرج شحاته - مقاول الانفار بعيلة السوالم ..
اجرة جمعة كاملة ، وضعها على قالب طوب احمر منزوع من جدران
سراية عيلة الناظر ، فى العتمة رصدت عينها الفلوس ، تنقل بصرها
بين الفلوس على قالب طوب سراية توفيق سليل عيلة الناظر ، وبين
وجه شحاته بالسهم الذى حط عليه .. الشفقة تأخذها من اجل
شحاته ، قالب الطوب فى استطالة وجه توفيق ، اذناها تلتقط ..
- اجرتك سبعة ايام ، ثمن كيلة الدرة ، ووهبة الطحان ..
... يمد يده ، نظيرة تستعد لنزال بدنى لا تخشاه ، انتهت لحظة
الازل الربيعية ؛ اللحظة التى احست فيها نظيرة بعزلتها مع
شحاته ..

... لحظتها كان شحاته مجرد مقاول انفار لجمع القطن فى غيظ
عيلة السوالم ...

المفسرون

تأليف

وول سوينكا

الفائز بجائزة نوبل في الادب لعام ١٩٨٦

ترجمة

محمد عباس جلال

تصدر : ١٥ يناير ١٩٨٧

رقم الايداع ٨٦ / ٧٤٤٢
الترقيم الدولي ٢٠ - ٢٧٢ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

الكويت: السيد عبدالعال بسيولي زغلول
الصفحة - ص ب رقم ٢١٨٢٢
تليفون ٧٤١١٦٤

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

اشترك
في
روايات
الهلال

هذه الرواية

عبقريّة الريف هي عبقرية ابداع محمد روميس
هذا هو ابسط المداخل لهذه الرواية
روميس ابن الارض واديمها ورائحتها
او كما قال عنه الاستاذ يحيى حفي

، من قصص روميس اسم راحه تراب القرية وارى
اهلها احياء وعلى المستوى الانساني لا المحلي فحسب .
وقد بقيت في ذهني من قصصه صورة امرأة غروية لن
انساهها هذا هو الامتحان الكبير للكاتب ، ان تدب في
شخصياته نبض الحياة وسمه التخصيص والانفراد بحيث اذا
ذكر الكاتب ذكرت على الفور اسماء هذه الشخصيات ، اذا
قلت مثلا عطيل او هاملت قلت على الفور شكسبير . والعكس
صحيح .